قبلَ السَّفر

قبلَ السَّفر

قبلَ السَّفر

علا عليوات

الغلاف بريشة: وداد إرشيد

إهداء،

إلى من رحلوا عنا ولم تُحكَ قصصهم

قبلَ السَّفر

معظم القصص الواردة في هذا الكتاب حقيقية

أو مستوحاة من أحداث حقيقية

أي تشابه بين أسماء الشخصيات وشخصيات واقعية

هو مجرد صدفة موفقة

قبلَ السَّفر

الفصل الأول

صورة شمسية

"من وين إنتوا؟"

أربكها السؤال، لم تفهمه، لم تعرف ماذا يريد أو من يقصد بـ"إنتوا"، أيقصد عائلتها؟ أي عائلة فيهما؟ لم تعرف ماذا تجيب، هل تقول له إن أباها وُلد ونشأ في السلط لأب عربي وأمّ شركسية، أم تقول له إن أمها تنحدر من عائلة نابلسية جاءت إلى معان في أوائل العشرينيات ومنها إلى عمّان لتستقر بعد أعوام في جبل التاج، وإن كان هناك خلاف حول أصل العائلة؛ إذ تؤكد الوثائق أنّهم ينحدرون من عائلة تركية كانت تسكن هضبة الأناضول، بينما ظل جدها يؤكد حتى آخر يوم في عمره أنّه نابلسي أباً عن جد وأنّه لم يرَ الأناضول في حياته. ولسبب ما لاحت في ذهنها جارتهم أم يحيى التي حكت لها قصة خروجها من فلسطين مع أولادها الخمسة أكثر من مائة مرة على أقل تقدير. "مسكينة أم يحيى، بتتذكر قصة صارت قبل أكثر من ستين سنة وما بتتذكر إنّها حكتها قبل يومين". لكن، ما دخل أم يحيى في الموضوع؟ إنّه يسأل عنها هي... هي؟ من أين هي؟

"أنا من عمّان" أجابته أخيراً

"مـن عمّـان؟ كلنـا مـن عمّـان... قصـدي أصـلك مـن وين؟"

ارتبكت من جديد، لماذا يسأل موظف الجوازات عن أصلها؟ لقد تربت منذ صغرها على ألا تسأل هذا السؤال لأحد، وإن طُرح عليها أن تسأل عن سبب السؤال قبل أن تجيب عليه، لكنّه بدا في هذا الموقف أغرب من أي وقت مضى وهو يُطرح عليها في دائرة حكومية من قِبل شخص لا تعرفه. ماذا لو لم تعجبه الإجابة؟ تخيلت نفسها تحكي الموقف لأمها، ربما كانت ستقول لها إنّه يبحث عن عروس ويريد معرفة أصلها وفصلها، أما والدها فكان سيغضب وربما يوبخها لأنّها لم تقل له "هاظ إشي ما بخصك"، أما أخوها ثائر الذي يصغرها بعدة أعوام فقد يقول لها "احكيله أنا من درب التبانة" أو شيئاً من هذا القبيل ليخرج الموضوع عن جديته الكاذبة فلا يعطيه أكبر من حجمه الذي يستحقه. أما أختها عروبة والتي ما تزال في الجامعة فخُيل لها أنّها تقف على دوّار ما وبيدها مكبر صوت، تلقي خطاباً عن الواسطة والمحسوبية والتمييز العنصري . أما إن طُرح السؤال على أم يحيى لأصابتها سكتة قلبية على الأغلب، ظناً أنّهم سيسحبون منها جواز السفر، ذلك الهاجس الذي يعود لملاحقتها بين الحين والآخر.

"وشو بدك بأصلي؟" سألت أخيراً بحدة مفتعلة

"لا ولا إشي، سلامتك" قال بامتعاض واضح، ثم أشار إلى الكراسي البلاستيكية في منطقة الانتظار. "تفضلي استريحي واستني اسمك"...

أعطتــه جـواز السـفر القـديم – الـذي انتهـت مـدة صــلاحيته قبــل أن يتســنى لهــا اســتخدامه- وصــورتين شمسيتين تم أخذهما لها ذلك الصباح في الشارع المقابل لمصلحة الجوازات، إذ إنّ الصورة التي معها لم تكن مطابقة للمواصفات المطلوبة. كيف لم يخطر ذلك ببالها؟ قالوا لها إنّ الصورة لا تنفع لأنّها ترتدي فيها قبعة تخرج، لكنّها كادت تجزم بأنّ السبب الحقيقي كان ابتسامتها العريضة في الصورة، سعادة بحصولها على شهادة الماجستير في ذلك الوقت، تلك الشهادة التي كان يُهيأ لها أنّها ستكون عصا سحرية أو مفتاحاً لجميع أبواب العالم، ثم كان مصيرها كمصير جواز السفر، في قاع الدُرج السفلي من الخزانة. نعم! لا بد أنّ الابتسامة هي السبب، فقد نفضت رفوف ذاكرتها وقلبتها رأساً على عقب ولم تجد فيها صورة لشخص مبتسم في جواز سفر، جميعها تبدو كصورتها هذه أو أسوأ، كأنّ الهدف من الصورة أن تثبت فعلاً أنك بحاجة إلى السفر. نظرت إلى النسخ المتبقية معها من الصورة المطابقة للمواصفات وراحت تفكر ماذا تفعل بها، لا يمكن أن تسمح بوقوعها في يد أحد. مهلاً، قد يكون لها استخدام مفيد، ستعطيها لعمتها عَلَميّة، فعمتها المسكينة لم تترك أحداً من العباد إلا ووزعت عليه صورة ابنة أخيها أملاً في تزويجها - رغم احتجاجاتها المتواصلة على ذلك- ربما لو رأت هذه الصورة لتوقفت عن توزيعها على الناس خشية أن "تبور" البنت، فمن يرى تلك الصورة قد يُهيأ له أنّ من فيها امرأة اتُهمت بقتل زوجها الثاني بعد اختفاء الأول في ظروف غامضة وخرجت من السجن بسبب عدم كفاية الأدلة ثم ارتكبت سرقة صغيرة

لتعود إلى السجن بكامل إرادتها لأنّها لم تعد تستطيع التأقلم مع الحياة في الخارج... أو شيئاً من هذا القبيل.

ضحكت للفكرة، ثم انتبهت لامرأة تجلس أمامها تحدق فيها باستهجان فتداركت نفسها وعادت للوجوم. نظرت إلى الوجوه حولها فإذا بها ترى فيها طابعاً مشتركاً وإن اختلف التعبير من وجه لآخر، وكأنّ هناك ختماً يطبعونه على وجوه المراجعين عند دخولهم من الباب. كان البؤس واضحاً على وجوه، ووجوه أخرى بدت حائرة بتعبير فيه شيء من الترقب، فلا هي عابسة ولا هي مبتسمة، وإنما تحاول إيجاد شكل مريح لا يثير استهجان الأعين المترصدة من حولها من دون إفراط ولا تفريط. في الزاوية اليسرى جلس رجل وامرأة بعباءة سوداء وأمامهما طفل يتململ ضجراً ويسأل أباه كل دقيقتين كم بقي من الوقت للمغادرة، وصبر الوالد ينفد مع كل سؤال. كانا زوجين بالتأكيد، وكانا ضجرين بالتأكيد، لكن لم يكن أي منهما يتحدث إلى الآخر. كيف وصلا إلى تلك المرحلة؟ سألت نفسها. هل تشاجرا في الطريق أم هل هو مجرد اعتياد وصل إلى حد الضجر؟ ألديهما أبناء آخرون؟ ولماذا هما هنا؟ أيريدان تجديد الجوازات للسفر بهدف معين؟ أيريدان فصل جواز سفر الولد عن جواز سفر أمه لأنّهما عزما على الطلاق واتفقا على أن يأخذ الأب ابنه ويسافر به؟ لا بد من وجود قصة، دائماً هناك قصة.

أدركت أنّها أطالت التحديق إلى العائلة بشكل لا يليق فأشاحت بنظرها وراحت تنظر إلى الآخرين من حولها. عجوز أبيض الشعر، على الأرجح أنّه جاوز السبعين،

ذكّرها بجدها الذي رحل قبل عامين فأفلتت منها ابتسامة لم تنتبه لها إلا حين قايضها العجوز نفسه بابتسامة مماثلة، شعرت بأنّها لم تكن مجاملة بل إشعاراً لها بأنّه يفهم ما يجول بخاطرها. كان يشبه إلى حد كبير جدها أبا عمر - جدها لأمها- فهي لا تذكر الكثير عن جدها وجدتها لأبيها إذ توفي كلاهما قبل أن تبلغ العاشرة من العمر. تقول أمها إن جدها مات قهراً وهو يتابع أخبار حرب الخليج، وماتت جدتها قهراً عليه. حملتها ابتسامة العجوز إلى مكان بعيد في الذاكرة، إلا أنّ رحلتها الذهنية قوطعت فجأة بصوت يقول باستهجان سافر "حتى الختيار مش عاتقتيه من شرك؟ صحيح اللي استحوا ماتوا!"

نظرت نحو مصدر الصوت تكاد لا تصدق ما تسمع، كانت امرأة ستينية شديدة النحول تجلس بجانب الرجل العجوز، أيقنت أنّها زوجته، وللحظة وقبل أن تستوعب الصدمة شعرت بشيء من الإعجاب بموقف المرأة، تغار عليه في هذا العمر! عادت للواقع، امرأة تتهمها علناً، الناس يرمقونها بنظرات تساؤل واستهجان، نظرت مجدداً إلى العجوز فإذا به ما زال يبتسم، ألم يسمع ما قالته زوجته؟ لعله يستمتع بإثارة غيرتها، كان جدّها يفعل ذلك مع جدتها. ثم جاء شاب يبدو أنّه حفيده أو ابن أنجبه على كبر، أخذ بيده وكلمه بصوت عالٍ وكأنّه يسكن في مدينة أخرى. ارتاحت بعض الشيء وحسدت العجوز على ثقل سمعه في تلك اللحظة، وقبل أن تستطيع تكوين أي كلمات ترد بها على زوجته والتي لن تراها في حياتها مرة أخرى ولن تعرف اسمها، سمعت صوت الموظف ينادي

قبلَ السَّفر

"أمل غازي أبو فرسان"

نهضت من فورها، حمدت الله على انتهاء المشهد، إلا أنّها كانت تعرف أنّه لم ينته بالنسبة إلى المرأة العجوز، إذ إنّها الآن عرفت اسمها فلا بد لها من تعليق آخر. أسرعت أمل محاولة الابتعاد قدر الإمكان بمجالها السمعي عن القنبلة المحتومة والتي لم تفلح في تفاديها في النهاية، ليست هي فقط بل كل من كان جالساً في قاعة الانتظار، ولعلهم كانوا يترقبون حدوث مشهدٍ يكسر الضجر المخيّم على المكان، إذ إنّها لم تكد تصل إلى شباك استلام الجوازات حتى سمعت المرأة تصيح بأعلى صوتها...

"المشكلة إنكو بنات عِيَل... يا عيب العيب"

تغير الجو في المكان فجأة، الزوجان الصامتان بدآ بالحديث، وابنهما الذي كان يسأل عن وقت المغادرة أصبح يسأل لماذا تصرخ المرأة، والموظف المتجهم ابتسم ابتسامة فيها شيء من الشماتة، وتحولت نظرة البؤس على الوجوه إلى نظرة تأنيب وتعالٍ أخلاقي. ألقت نظرة خاطفة حول المكان فوجدته يبدو أفضل بكثير مما كان عليه، شعرت بالفخر، لقد أدت دورها في خدمة المجتمع لهذا اليوم. بحركة سريعة أسدلت نظارتها الشمسية فوق عينيها، ابتسمت بتكلف، وخرجت من المكان.

الفَصْلُ الثَّانِي

شهادة ميلاد

ولدت أمل غازي أبو فرسان، كما هي معروفة في شهادة الميلاد والوثائق الرسمية، في عمّان في 10 تموز 1982. كانت المولودة الأولى للعائلة، واختارت لها أمها اسم أمل على اسم أختها التي توفيت بحادث قبل أن تبلغ العشرين. لم يعترض والدها على الاسم، لكن حين عرف جدها لأبيها أنّهم أسموها بأمل جن جنونه، وأمرهم بتغيير الاسم على الفور.

"إنتوا ما بتشوفوا أخبار؟ ما سمعتوا شو عملت حركة أمل في لبنان؟ ما سمعتوا كيف قصفت المخيمات؟"

لكنّ اسمها كان قد سُجل في شهادة الميلاد "أمل"، وكانت أمها مصرة عليه. "هو ما في أمل غير حركة أمل! صار الاسم حرام يعني؟" وبعد شد وجذب ونقاش طويل قرروا إبقاء اسمها في شهادة الميلاد أمل، ومناداتها باسم آمال احتراماً لرغبة جدها الذي لم يستطع أحد تغيير رأيه. كان والدها يعرف أباه، هو هكذا، لم يعرف رجلاً يملك حساً وطنياً مثله إلا أنّه لم يكن يحب ولو مجرد الإشارة إلى اي شيء يذكره بالخيبات العربية المتتالية والويلات التي كان شاهداً عليها منذ فتح عينيه على الدنيا، حتى إنّه لم يكن يتحدث عن أيامه في الحرب حيث قاتل مع الجيش

العربي في فلسطين عام 1948، كأنّه كان يشعر بالخجل لأنّ فلسطين ضاعت وهو ما يزال حياً.

وهكذا أصبح لها اسمان، أمل وآمال، الأمر الذي يجده شقيقها ثائر فرصة لإغاظتها بين الحين والآخر. "من يوم يومك مفصومة..." يضحك، تنظر إليه نظرة تهديد ووعيد قد تبدو مخيفة لمن لا يعرفها، ويساعدها على ذلك اتساع عينيها واتشاح لونهما العسلي بشيء من الخضرة، السمة الوحيدة التي ورثتها من جدتها الشركسية، أما بقية ملامحها فكانت عربية بامتياز. لكنّ نظرتها تلك لا تخيف أخاها بل تستفزه نحو مزيد من السخرية فيستطرد قائلاً: "بس بتعرفي؟ منيح اللي جدي الله يرحمه خلاهم يغيروا اسمك، آمال أزبط، ممطوط مط، على مقاسك، أمل قصير عليك" إشارة منه إلى طول قامتها الذي لطالما كان علامتها الفارقة، وتسبب في وضعها دائماً في آخر أي طابور، وآخر مقعد في أي صف مدرسي، مما عزز لديها نزعة انطوائية وقلة في التركيز.

تكتم ضحكتها، تنفذ تهديدها أحياناً برمي فردة حذاء أو وسادة عليه، ويعود بعد قليل لإغاظتها من جديد، حكاية لا تنتهي. لا ترد عليه أحياناً، يظنها غضبت فعلاً فيحاول استرضاءها بالأسلوب نفسه. "خلص تزعليش، ممكن نعتبر أمل اسمك الحقيقي وآمال اسمك الحركي، زي أبو عمّار... أو أبو مازن"

تتدخل عروبة فجأة معلنة موقفاً سياسياً جاداً "بلا تشبيه"

"هه، شايفة؟" يحول ثائر سخريته نحو عروبة. "هاي أختك القزعة هي اللي بدها اسم حركي مش إنت... عامليتلي فيها (تشي غيفارا)، آخرتها تودينا كلنا في داهية"

"وإنت يا جاهل شو بتعرف عن (تشي غيفارا) غير صورته اللي على التيشيرتات اللي بتشتريها من وسط البلد؟" ترد عروبة بنبرة استفزازية

يتحول مسار الجدال ليصبح مناوشة تأخذ منحى جدياً أحياناً بين عروبة وثائر، وتخرج آمال منه لتبقى حيث حملتها ذاكرتها ما أن ذُكر اسم جدها، وباتت أصوات النقاش من حولها بعيدة كأنّها آتية من خارج كهف تتوغل هي فيه شيئاً فشيئاً. تبتعد الأصوات، تجد نفسها في منزل جدها في السلط وهي طفلة في الثامنة من عمرها. كان جدها يفضّل السلط على عمّان ورفض الرحيل منها حتى حين انتقل جميع أبناؤه للعيش في العاصمة أو في بلدان أخرى، وكان يصر على أن السلط هي عاصمة الأردن رغم كل شيء، على الأقل بالنسبة إليه. لكنّه كان يحب منزل عائلتها في اللويبدة، كان يقول إن شوارعها تحمل رائحة الماضي، وأنّ هدوءها الوقور لم يتلوث بعشوائية المدينة المحيطة بها. تفكر، كان هذا قبل أكثر من 20 عاماً، ماذا سيقول لو رأى عمّان اليوم؟ لن يعرفها بالتأكيد. تتذكره جالساً أمام التلفاز، يتابع أخبار الحرب. تجلس بجانبه وتلاحظ بروز شريان في جبينه، ذلك الشريان النافر الذي يفضح غضبه مهما حاول إخفاءه. ترى جنوداً ودبابات على التلفاز، لا تفهم ما يجري، تسمع كلمة

"احـتلال" مـن دون الإشـارة إلـى اليهـود فتبـادر بسـؤال عفوي...

"جدو، مين احتل مين؟"

"العراق احتلت الكويت" يجيب جدها بعد ثوانٍ من الصمت، كأن الكلام يُنتزع من بين أسنانه كما تُنتزع الروح الخبيثة من الجسد.

تسـتغرب، لا تفهـم، تسـأله بصـيغة أقـرب إلـى الاستنكار "كيف يعني بلد عربي يحتل بلد عربي؟"

يعود جدها إلى صمته. عيناه معلقتان بالتلفاز كما لو كان يتحاشى النظر إليها، كأنّه هو المسؤول وكأنّها هي - تلك الطفلة التي لم تتعدَ الثامنة من عمرها- تحاكمه. تظل تنتظر الإجابة، وبعد لحظات من الصمت ومن دون أن ينظر إليها يقول كلمة واحدة: "بتصير"

مات بعد ذلك بيومين، كان ذلك آخر ما تتذكره عن جدها أبي غازي، وهو ما جعلها تفهم - ربما أكثر من أي شخص آخر- لِمَ أصرّ على أن يكون لها اسمان، وتعذره.

الفَصْلُ الثَّالِث

قرار سفر

كان الوضع مواتياً لإعلان الخبر: العائلة كلها هنا، أمها وأبوها وأخواها وحتى جدتها أم عمر. كانوا قد انتهوا من غدائهم للتو وجلسوا لشرب الشاي كالعادة. قررت ألا تعلن الخبر على مائدة الطعام كيلا تفسد شهيتهم. تذكرت حين فعل ثائر ذلك ذات مرة حيث أعلن أمامهم على مائدة الغداء أنّه سيحول تخصصه من كلية الحقوق إلى كلية الرياضة. دار جدل حاد بينه وبين أبيه يومها انتهى بأن رفع الأب صينية "المقلوبة" وضربها بالسقف. كانت تلك من المرات القليلة التي رأت فيها آمال والدها الهادىء بطبعه يفقد أعصابه بهذه الطريقة، وكانت أول مرة تدرك فيها أنّ هدوء والدها ليس طبيعة فطرية بل جهاداً للنفس. نظرت إلى صينية الملفوف على المائدة وتذكرت كم تعبت أمها في حشوه ولفّه فقررت التريث، سيكون مؤسفاً أن ينتهي به الأمر على السقف وفوق رؤوسهم.

"إجاني عرض عمل في دبي"

قالتها فجأة وبدون مناسبة. سكت الجميع، نظروا إليها لتكمل الكلام، لم تقل حرفاً آخر.

"وبدك تروحي؟" سأل ثائر لتبديد الصمت أكثر منه للحصول على إجابة

"العرض كتير منيح، والشغل أحسن من شغلي هون بكتير، قلت لحالي تجربة جديدة، ليش لأ؟"

"ليش لأ!" صاحت أمها ليصبح التوتر رسمياً وواضحاً الآن "كيف بدك تروحي تعيشي لحالك في بلد غريب؟"

"مش رح أكون لحالي، نسيتي أنّه عمي منذر وعيلته هناك؟ كمان ساكنين قريب من المنطقة اللي بدي أشتغل فيها، وبعدين أنا مش صغيرة عشان تخافوا علي أعيش لحالي، بدو يصير عمري 30 سنة" قالت تلك العبارة الأخيرة وهي تتحاشى النظر إلى أمها، كأنّها هي نفسها ليست واثقة بما تقول.

نظرت الأمّ إلى زوجها منتظرة أن يقول شيئاً. "سامع بنتك؟ احكيلك كلمة"

كانت آمال تنظر إليه أيضاً كأنّما تنتظر منه أن يقول كلمة الفصل، كما لو كانت هي نفسها لا تعرف ماذا تريد. لم يغضب، لم يجادلها، لم يقلب صينية الشاي والأكواب رأساً على عقب، لم تتوقع منه الهدوء في هذا الموقف، والأسوأ أنّها لم تكن تعرف كيف تريد لرد فعله أن يكون.

"البنت معاها حق. فرصة وإجت لعندها، وبيت عمها هناك والبلد أمان، يعني ما في مشكلة"

ضربت أمها بكفيها على ركبتيها. "ما أبرد قلبه! رح يجنني..."

للحظة، كادت تتناسى الأمر برمته وتنفجر ضاحكة من الموقف، كما تفعل في كل موقف يستفز فيه هدوء والدها أعصاب أمها التي لطالما حذرتها من هذا الصنف من الرجال، وإن كان نادراً. "أوعك تاخدي واحد باله طويل، بفري قلبك وبجيبلك كل أمراض الدنيا"

لم يكن هدوء والدها ومباركته للأمر مستفزاً لزوجته فقط، فجدتها أم عمر قررت الإدلاء بدلوها أيضاً، موجهة الكلام بشكل غير مباشر إلى زوج ابنتها:

"بزمانه أبوي علقني من شعري بالسقف عشان روحت لحالي من المدرسة. إيه، الزمن بتغير، بس الله يسترنا من كلام الناس"

"اللي بحكي كلمة على بنتي بقص لسانه". قالها والدها بنفس هدوئه السابق، ذلك الهدوء المصحوب بالحزم الذي لم تفلح يوماً في فك سره والذي كان يضفي عليه هيبة من نوع غريب، تلك الهيبة التي تُشعرك بأنّك إن أخطأت أمامه سيجردك من احترامك لنفسك بعبارة يقولها وهو يحتسي فنجان قهوة. هدوء لا تعرف متى يبلغ مداه وينفجر على شكل صفعة للوجه أو قِدر من الرز يتناثر فوق رأسك، الأمر الذي حدث مرات معدودة وكانت

جميعها موجهة نحو ثائر، الذي يبدو أنّه الوحيد الذي يعرف كيف يستفز أباه إلى درجة الغليان بقصد أو بغير قصد. كان ثائريستمع إلى الحوار ولا يعلق عليه، ملتزماً بأمر أبيه ألا يتدخل في شؤون أختيه ما دام هو على قيد الحياة. أما عروبة فاتخذت موقفاً احتجاجياً لسبب آخر

"آمال بتخليها تسافر على دبي لحالها، أما أنا لما طلبت منك أنزل عالشام مع صاحباتي ما خليتني!"

وجدها ثائر فرصة للتدخل ولو مازحاً. "إنت ما بتأمّن عليك تسافري لحالك، خوف الله ما بنلاقيكي غير في غوانتانامو... بعدين على شو مستعجلة؟ شكلك آخرتك لجوء سياسي على كل حال"

"بلا مسخرة إنت التاني!" قالت أمها لتعيد الحوار إلى مجراه الأصلي. "من إيمتى البنات بسافروا بشتغلوا وبعيشوا لحالهم؟ شو خليتوا للشباب؟ بدك تطلعي تعيشي برّا بتتجوزي وبتروحي غير هيك ما عندي"

"الحل السحري لكل شيء" قالت آمال في نفسها.

"ومين بدها تتجوز؟ النضوات اللي بتجيبهم عمتي عَلَميّة؟" قالت عروبة بسخرية وهي تنظر إلى آمال التي لم تضحك، فهي تعرف إلى أين سيتجه الحوار بعد ذلك.

"نضوات ولا أختك اللي مش عاجبها العجب؟" ردت أمها بحدة. "مش راضية تتجوز وما حكينالها إشي

ولا غصبناها ولا اتدخلنا فيها، بس تيجي تحكيلي بدي أسافر أشتغل برّا؟ زودَتها!"

"ثريا، بنتك مش مبسوطة هون" قال والدها وقد تبدد هدوؤه ونهض من مكانه. "اتركيها تسافر، وبديش أسمع كلمة تانية في هالموضوع"

ساد الغرفة صمت مشوب بالتوتر. لقد حسم والدها الأمر بشكل لم تكن آمال نفسها مستعدة له. ربما كانت تريد أن يرفض لتجد شيئاً تبرر به ترددها الداخلي وخوفها من المجهول، أو كانت تريد أن يأتي الرفض من جهته كيلا تشعر بالذنب أو الندم يوماً على فرصة أضاعتها. لكنّه لم يبارك قرارها فحسب، بل واجهها بحقيقة أخرى عن نفسها لطالما تجنبت مواجهتها، وتغير كل شيء في لحظة؛ فلم تعد الفتاة الصغيرة التي تنتظر من ولي أمرها أن يتخذ قرارات حياتها نيابة عنها، بل شعرت لأول مرة في حياتها أنّها كبرت، وأنّ سعادتها لم تعد مسؤولية أحد غيرها.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

استقالة

لم تذكر يوماً أنّها فعلت شيئاً في هذه الشركة بهذا الحماس. لم تستطع احتواء ابتسامتها وكأنّها تشنج لإرادي في الوجه، وراحت أصابعها تتلعثم فوق لوحة المفاتيح فتطبع السين بدل الياء والجيم بدل الدال. راجعتها عدة مرات، حذفت كلمات وأضافت أخرى ثم غيرت بعض العبارات حين أدركت نفاقها المفرط.

"وإنني أقدّر الخبرة التي اكتسبتها لدى شركتكم"

أي خبرة؟ قررت حذف العبارة.

تأملت نص الاستقالة، تساءلت: يا ترى لو أنّها ضربت بقواعد التهذيب والمجاملات عرض الحائط وكتبت ما كان يجول في خاطرها فعلاً - الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة- يا ترى كيف سيكون نص تلك الاستقالة؟ ربما شيئاً من هذا القبيل...

"حضرة المدير المحترم،

أعلمكم أنّني وبعد تفكير وجيز، إذ إنّ الأمر حقيقة لا يحتاج إلى التفكير، أقدم استقالتي من وظيفتي لدى شركتكم المحترمة - ظاهرياً على الأقل-. فكما تعلم حضرتك وتتصرف كأنّك لا تعلم، أعمل في شركتكم منذ

ستة أعوام، ستة أعوام لم تضف إلى خبرتي شيئاً يذكر سوى أنني تعلمت كيف أنتحل شخصيات عديدة لاجتذاب الناس إلى أقسام موقعكم الإلكتروني المختلفة وخاصة منتدياتكم. بصراحة، لم يكن ضمن حساباتي أن أعمل في موقع إلكتروني كل هذه المدة، نظراً إلى طبيعة وظيفتي التي تتطلب مستوى عالياً من الإبداع: نسخ ولصق مواضيع متفرقة من الإنترنت ونشرها في المنتديات الخاصة بالموقع، ثم انتحال شخصية أخرى والتعليق على المواضيع نفسها لاجتذاب المشاركات. لكن من باب الإنصاف علي القول إنّني اكتسبت خبرة من نوع ما في شركتكم المصونة، خبرة في توقع أي شيء من مختلف أنواع البشر، والجاهزية الدائمة لتلقي "الأسافين" من دون أسباب واضحة، لذا ومن باب النزاهة والأمانة الوظيفية أرجو منحي شهادة في تفادي الأسافين كمهارة حياتية للدفاع عن النفس، أما شهادة الخبرة فـ"بلوها واشربوا ميتها". كما علي الاعتراف بفضلكم في دفعي للحصول على درجة الماجستير إذ كان السبب الوحيد لعودتي إلى مقاعد الدراسة هو الأمل في إيجاد وظيفة في مكان آخر، لأكتشف فيما بعد أنّ الشهادات العليا هنا لا تُعامل على أنها محصّل علمي إضافي، بل كإنذار من أنّ حامل هذه الشهادة سيطلب راتباً أعلى من غيره، فأصبحت رسمياً وبلا فخر "شخصاً مؤهلاً أكثر من اللازم". وكوني سأستقيل وقد لا ترى وجهي في حياتك مجدداً، أرغب في البوح بشيء لطالما أردت الوقوف في وسط الشركة والصراخ به بأعلى صوتي: أنا أعرف أنّك سرقت أفكار ذلك الموظف الجديد المسكين ثم تسببت بطرده حين حاول فضح أمرك، وأعرف باختلاسك لأموال الشركة في صفقة

شراء الكمبيوترات والتي ذهب نصف ثمنها في جيبك، وأعرف بغرامياتك مع الموظفة الجديدة في قسم الموارد البشرية، في الواقع الشركة كلها تعرف ونعرف أيضاً أنّها تستغلك فقط وتسخر منك في غيابك. من هنا، يمكنك أن ترى بوضوح الأسباب التي دفعتني للاستقالة، ولتعلم يا سيدي أنّك قد نلت وشركتك الشرف في أن تكونا من أهم الأسباب التي دفعتني لترك البلد، لذلك لن أختم هذه الاستقالة برجائك لتقبل فائق الاحترام كما جرت العادة، فالاحترام أبعد ما يكون عما أكنه لك من مشاعر، ولأعطيك فكرة عن نوع تلك المشاعر يمكنك القول إنّني كلما رأيتك في الصباح الباكر أشعر برغبة عارمة في التقيؤ، فتقبل مني ذلك الشعور، أو لا تتقبله، الأمر سيان.

ساري المفعول اعتباراً من تاريخه في آذار 2012"

ضحكت لنص الاستقالة الوهمية، كانت أصابعها تتحفز لحذف ما كتبته وطباعة ذلك بدلاً منه، لكنّها تراجعت حين تذكرت محامي الشركة الذي يمكنه تحويل جملة "صباح الخير" إلى قضية ذم وقدح. كل ما تريده الآن هو الخروج من هنا بلا مشاكل، أو كما قال أحد زملائها: "أعطيهم الاستقالة خليهم يعطوك صك العبودية عشان تمزعيه وتتحرري". كان يمزح، لكنّها كانت تشعر فعلاً بأنّها مقيدة بأصفاد في قدميها وهي على مكتبها من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً.

راجعت ما كتبته مرة أخيرة ثم ضغطت زر الطباعة. كادت قدماها أن تسبقاها إلى الطابعة، تخيلت أنّها

ما كانت ستشعر بهذا القدر من السعادة لو كانت تمشي في المطار للقاء حبيبها القادم من السفر بعد غياب سنوات، ذلك الحبيب الوهمي الذي لم يأت يوماً، لكنّها تخيلت أنّ الشعور سيكون مشابهاً لما تشعر به الآن. سحبت الورقة حال خروجها من الطابعة، ضغطت عليها بين كفيها مستشعرة دفئها، ذلك الدفء اللحظي الذي يفصل بين الخروج عن المألوف والخوف من المجهول.

كانت قد أخبرت زميلين لها بأمر استقالتها، شذى وعلاء، الشخصان الوحيدان اللذان تثق بهما. تحمّس علاء للأمر، راح يسألها عن وظيفتها في دبي وأغرق في تحري التفاصيل: كيف وجدت الوظيفة، الراتب المعروض عليها، السكن، الإقامة، الأوراق التي طلبوها منها في السفارة، هل تنوي التقدم لامتحان قيادة السيارات هناك وحتى نوع السيارة التي تنوي شراءها حين تستقر أمورها، إلى غير ذلك من الأسئلة.

"أنا لو أطلع على دبي أول إشي بعمله بنزل سيارة بي إم"

"طبعاً..." ردت شذى بتهكم. "شب أردني في دبي كيف بتعرفه؟ بكون معاه بي إم، الحلم العربي"

"أيوَه، اتمسخري، إنت شو همك؟ إنتوا البنات مش مطفوسين زينا. بتشتغلي عشان "تحققي ذاتك" ولا مش عارف شو، إحنا الواحد فينا بتخرج وببلش يفكر كيف يجيب البيت والسيارة ويأمن حاله عشان بس يلاقي ست

الحسن يكون معاه يعمللها عرس في الشيراتون ولا الماريوت"

"بدي أكتر من هيك ابتذال علاء!" ترد شذى بجدية هذه المرة. "إنت وين عايش، بمسلسل أردني من التسعينات؟ زمن الشغل عشان تحقيق الذات هاد خلص زمان، هلأ البنت زي الشب، بتشتغل عشان تجيب مصاري وتساعد أهلها. فكرك أنا كتير مبسوطة وأنا بَحرُت من الصبح للمسا؟ أنا لو ألاقي واحد معاه مصاري يقعدني في البيت أتستت وأربي الاولاد من بكرة بترك الشغل، بكفيني تحقيق ذات، كفاها الله"

نظرت شذى إلى آمال التي كانت تستمع لحديثهما من دون تعليق. استفزها سكوتها، أو شيئا من الغيرة التي يشعر بها الموظفون من الموظف الذي نال حريته للتو. باغتتها بالسؤال:

- "طيب إنت ما فكرتي في هاد الموضوع؟"

- "أي موضوع؟"

- "موضوع إنّه إذا سافرت بتقل فرصك في الزواج."

- "يا ستي كل واحد بياخد نصيبه، مش رح أوقف حياتي عشان أستنى واحد يمكن ييجي ويمكن ما ييجي"

- "بركي إجا وما لقاكي؟"

- "معناته ماليش في الطيب نصيب يا ستي، بركي لقاكي إنت"

لم تفصح آمال لشذى أنّها فكرت في الأمر، وأن ذلك زادها إصراراً على السفر، فهي لن تجلس بانتظار شخص يقدم لها السعادة على طبق من ذهب، بل ستعوّد نفسها على العيش وحدها، وعلى أن تكون سعيدة وحدها في حال اضطرت إلى ذلك.

"على كل حال فكري في كلام شذى منيح" تدخل علاء ليبدد التوتر الذي بدأ يطفو على السطح. "وإذا قررت تردي عليها وبطّلت تسافري قوليلهم ياخدوني بدالك أنا ما عندي مانع، مش ضمن مخططاتي أتجوز وأقعد في البيت"

ضحكت من دون أن تعلق على كلامه، اكتفت باحتضان ورقة الاستقالة والمضي إلى مكتب المدير بخطوات ثابتة، ليعلم أنّها لن تفكر في كلام شذى ولن تغير رأيها؛ فقد اتخذت قرارها، وسترحل.

الفَصْلُ الخَامِسْ

عرسان عَلَميّة

لم يكن أمراً مفاجئاً تبادر الموضوع نفسه إلى أذهان الجميع حالما تذكر آمال عزمها على السفر والعمل في الخارج. "متى ستتزوجين؟ وكيف؟ ومن؟" كما لو أنّ الرجال انقرضوا من العالم إلا في عمّان، أو أنّ الزواج مفهوم مقتصر على هذه المنطقة وغير معترف به دولياً، لكنّها كانت تفهم سبب قلقهم فلا تجادل كثيراً.

لم تكن تتوقع رد فعل كهذا من بعض الأشخاص، إلا أنّ هناك امرأة واحدة كانت متيّقنة من أنّها لن تذكر الموضوع فحسب، بل ستبذل وسعها لإقناعها بالعدول عن رأيها لأجل ذلك السبب فقط ولا شيء غيره. كيف لا؟ فمنذ أن وصلت آمال سن الزواج، الذي هو بالنسبة إلى عمتها عَلَميّة العمر الذي يأتي فيه أول عريس مناسب، وهي تبذل جهدها كي "تنفق البنت" كما تعبر بمصطلحاتها الخاصة، وكأنّ البنت "مرطبان مخلل".

ولدى عَلَميّة، عمتها الوحيدة، سبب وجيه لكل هذا الإلحاح على تزويج ابنة أخيها، سبب تتفهمه آمال جيداً وإن لم تقتنع به رغم كل محاولات عمتها. فعَلَميّة والتي تجاوزت الستين بأعوام أرملة بلا أبناء، إذ مات عنها زوجها بعد زواج دام أكثر من ثلاثين عاماً لم يرزقا فيها بذرية، وأصرت بعد وفاته على البقاء في منزلها وعدم

الانتقال للإقامة مع أحد إخوتها، والذين تكبرهم جميعاً، رغم محاولاتهم المتكررة لإقناعها، لكنّهم في النهاية استسلموا لرغبتها واتفقوا على أن يجلبوا لها خادمة تساعدها وتعتني بها كيلا تكون وحدها، ومنذ ذلك الحين وهي تعيش مع خادمتها السيريلانكية (سومينا)، والتي كانت تجد صعوبة في تذكر اسمها، فمرة تناديها (سلما) ومرة تناديها (سوناما)، وفي النهاية اختلط عليها اسم المسكينة مع الأحداث المؤسفة في بلدها فأصبحت تناديها (تسونامي). لم تعترض الخادمة ولم تصحح لها الاسم بعد ذلك، على الأقل أصبح لها اسم واحد تناديها به.

لم تكن عَلَميّة تسأم أبداً من إعادة توضيح السبب وراء رغبتها في تزويج آمال كلما أتيحت لها الفرصة. فأحياناً تسترسل في وصف حياتها مع زوجها المتوفي، وكيف عاشت أجمل أيام حياتها معه، وكيف أنّها مستعدة لمقايضة يوم واحد من حياتها معه بكل السنوات التي عاشتها بعده. تعرف آمال ذلك جيداً إذ ما تزال ذكريات زياراتها لمنزلهما في الأشرفية مطبوعة في ذاكرتها، وكذلك صوتهما وهما يغنيان "بترحلك مشوار... قلتلا يا ريت" التي كانت أغنيتهما المفضلة، خاصة في الأوقات التي كانا يمران فيها بضائقة مالية، حيث يصبح مقطعهما المفضل في الأغنية هو "قلتلا بطّلت... خليني بالبيت". كان ذلك الجو المليء بالدفء والعفوية سبباً في عدم خلو منزلهما من الزوار في أغلب الأوقات، فبساطة الحال وغصة الحرمان من الأطفال لم تمنعهما من إعطاء بيتهما تلك الروح التي تفتقر إليها بيوت كثيرة لم تحرم من مال ولا من بنون، لكن لم تعرف قيمتهما. كانا سعيدين حقاً

وكانت عمتها تستخدم ذلك كسلاح لإقناع آمال بأنّها تريد لها أن تعيش تلك السعادة أيضاً، لكنّها أحياناً كانت تميل إلى المبالغة الدرامية، فتعتدل في جلستها وتخفض صوتها إلى درجة أشبه بالأنين ويكتسب رجفة غريبة، وتذبّل عينيها لتصبح التجاعيد من حولهما أكثر وضوحاً، ثم تقول جملتها الشهيرة:

"والله يا عمتي الوحدة صعبة"

تحاول آمال التخفيف عنها وتذكرها بأنّها ليست وحيدة، فهي وأخواها مثل أبنائها الذين لم تنجبهم، إلا أنّ عَلَميّة لا تقبل مواساة وهي في ذروة مشهدها الدرامي، فتقاطعها وهي ترفع ذراعها بالهواء للتأكيد على ما ستقول:

"لا تقوليلي زي ولادي، فش حدا زي ولادك. أي نعم بحبكم زي ولادي، بس في الآخر كل واحد الحياة بتاخده ويلتهي بحاله وبعياله. مرات ببقى قاعدة لحالي بالدار ما بلاقي حالي غير صرت أبكي، بتصير المسكينة تسونامي تعبطني وتقولي "خلص ماما، خلص"، وبتصير تبكي معي المسخمة، حنونة هالتسونامي... ما هي الثانية راحوا ولادها في هذاك الاعصار أبصر شو اسمه... يا ويلي عليها وعليهم!"

تذرف دمعة أو دمعتين، تنظر إلى آمال لترى ما إن كانت وصلت إلى وضع يمكنها فيه مفاتحتها بالموضوع، فإن لم تجدها بلغت الدرجة المطلوبة من التأثر تستخدم الخطة البديلة.

"بعدين والله يا عمتي الصغار حلوين في البيت، بدنا نشوف ولادك" تقولها بابتسامة فيها شيء من التكلف.

قد تكون استراتيجية ذكية لكن ليس مع آمال، فهي لم تشعر يوماً بتلك المحبة الغريزية للأطفال، ولم تحلم يوماً بأن تصبح أماً، ولم تكن تفهم السبب الذي يجعل الناس يتأثرون لدى رؤية صورة طفل حديث الولادة وتبحث عن الجمال الذي يتحدثون عنه في ملامحه المتجعدة بفعل نقعه تسعة أشهر في مختلف أنواع السوائل اللزجة داخل فرنه الصغير. إلا أنّها تذكر تغيراً لحظياً في تلك المشاعر ذات ليلة حين رأت في الحلم أنّها تحمل فتاة صغيرة بيضاء البشرة، ذات شعر أسود وعينين سوادوين واسعتين. كانت ترتدي فستاناً أحمر، وكانت هي، آمال، تحضنها بين ذراعيها وتريها للناس وهي تضحك من كل قلبها، والطفلة تضحك أيضاً. في ذلك الحلم أحست بشعور غريب، شعور دافىء لم تشعر به قط، بل لم تكن تعرف أنّه موجود أصلاً. حين استيقظت ظلّت تحدق في السقف لدقائق محاولة إيجاد طريقة لوصف ذلك الشعور ولم تجدها. حاولت أن تستعيده، لم تفلح في ذلك. أيعقل أن نشعر في الحلم بشيء لا نعرفه في الواقع؟ هل الأحلام حقيقية إلى هذه الدرجة؟ كانت تذهب للنوم كل يوم آملة أن يتكرر ذلك الحلم، أو على الأقل ذلك الشعور، لكنّ ذلك لم يحدث. حرصت على ألا تخبر أحداً بذلك، خاصة عمتها عَلَميّة؛ فلا حاجة لها إلى سبب آخر تدعم به حجتها ويزيد من إلحاحها.

حين لا تجد عَلَميّة تجاوباً منها تقرر أن تمضي باقتراحها على أي حال

"ها؟ نخلي الجماعة ييجو؟ شوفي الزلمة، ما بتخسري إشي"

بالتأكيد لم تكن عَلَميّة تعرف حين حاولت استخدام طريقتها المعهودة لثني آمال عن السفر بأنّها هي والعرسان الذين تجلبهم من أهم الأسباب التي دفعتها للتفكير في السفر في المقام الأول؛ فبالنسبة إلى آمال، ضغط المجتمع كله في كفة، وضغط عمتها عَلَميّة وحدها في كفة أخرى، وكانت عادة ما ترضخ له. تقول لنفسها إنّها تفعل ذلك مراعاة لعمتها العجوز والتي لم يعد لها ما يشغلها في حياتها غيرها، لكنّها تعرف جيداً أنّ السبب أعمق من ذلك، وهو لا يرتبط باستسلامها لإلحاح عمتها فحسب بل بافتقارها للقوة والدافع لمقاومة أي ضغط مفروض عليها، وإن كانت ترفضه بكل كيانها، فمنذ طفولتها اعتادت على تلبية توقعات معينة ومحاكاة صورة نمطية رسمها لها من حولها حين فسّروا هدوءها على أنّه "رزانة"، بينما كان السبب الحقيقي وراء ذلك الهدوء شغفها بملاحظة التفاصيل الدقيقة في كل ما حولها، والذي كان غالباً ما يقودها إلى الشرود في عالم آخر لا يمكن قراءة تفاصيله في ملامح وجهها الصامتة؛ فأصبحت رغماً عن أنفها "البنت العاقلة" التي يُضرب بها المثل، والتي يُتوقع منها أن تعيش وفقاً لمنظومة معينة تناسب من حولها أكثر مما تناسبها، فلا هي استطاعت العيش بها ولا هي عرفت كيف ترفضها.

إلا أنّها هذه المرة قررت أن تكون حازمة أكثر، فإن كانت تستطيع اتخاذ قرار ببدء حياة جديدة في مكان جديد، لا بد أنّها تستطيع أن تقول لعمتها "لا" ولو مرة واحدة من باب التغيير.

- "عمتي، أنا قررت أسافر وما بدي أشوف حدا. قرار نهائي"

- "ليش يا عمتي؟ بركي طلع نصيبك مع هالزلمة وخلصتي من قصة السفر"

- "عمتي... أنا بدي أسافر، أنا مبسوطة عشان بدي أسافر"

- "عاد والله مبين عريس لقطة وما بِنرَفَض"

تلك العبارة الأخيرة أثبتت هشاشتها منذ زمن، واكتسبت بعداً فكاهياً خاصاً في العائلة نظراً لارتباطه بأشخاص أبعد ما يكونون عن المعنى المقصود بالعبارة. هذه المرة حين سمعت آمال العبارة شعرت بحرارة في رأسها وقررت أن تذكّر عمتها ببعض من وصفتهم بها.

ذكّرتها بالعريس الذي وصفته بأنّه متعلم ومتفتح الذهن، وشددت على ذلك، وحين جاء إلى بيتهم مبتهجاً ومتفائلاً سألته عن سر تفائله الواضح فأجاب بأنّه أرسل اسمه واسمها لخدمة "التوافق بين الأسماء" على هاتفه الخلوي فوجد أنّ نسبة التوافق 90%، وأنّه لا داعي للقلق

بشأن الـ10% الباقية لأنّ الخلافات ملح الحياة ولأنّ هناك توافقاً بين برجيهما سيسد تلك الفجوة.

ثم ذكّرتها بذاك الذي كان أول سؤال طرحه عليها "بتأرجلي؟" أو ذاك الذي كانت أمه هي من يتولى الحديث فسألتها عن رقمها في ديوان الخدمة الاجتماعية ثم قالت لها "إحنا عنا غرفة في البيت عشان تسكنوا فيها، بس إذا حبيتي تشتغلي وتستأجري برّا إنت وياه فما في مانع". ثم ذكّرتها بأكبر كارثة من بينهم جميعاً وهو الذي راح يشرح لها عن أهمية "الغرائز الحيوانية" في العلاقة الزوجية في أول مرة زارهم فيها، مما كان سبباً كفيلاً بجعلها آخر مرة.

تضحك عَلَميّة من كل قلبها ثم تبدأ هي بتذكيرها بآخرين لم تذكرهم، فهناك الذي انتفض وقام حين عرف أنّها تصغره بخمسة أعوام فقط، فهو يريد فتاة في بداية العشرينيات مع أنّه تجاوز الثلاثين بأعوام، أو ذاك الذي راح يتحدث عن أملاكه وأمواله من أول الزيارة إلى آخرها، لدرجة أنّهم نسوا اسمه بعد ذهابه ولم يتذكروا سوى اسم شركته. أو بصاحب المقولة الشهيرة والتي ستتذكرها العائلة كلها لفترة طويلة: "أنا ضد تعليم المرأة، وضد عمل المرأة، بس ظروف المجتمع حتمت علي إنّي أدوّر على امرأة عاملة"

تضحكان قليلاً، ثم تعود النبرة الجدية لعمتها، فتذكرها بالأشخاص الجيدين الذين تقدموا لها وتعدد بعضاً منهم، فترد عليها آمال بأنّ أياً منهم لم يرجع بعد الزيارة الأولى. في البداية كانت آمال تتساءل عن السبب ثم اعتادت الأمر وقررت ألا تسمح له أن يهز ثقتها بنفسها،

بل تردد ما تقوله عمتها بقناعة: "هم الخسرانين". ثم تلجأ عمتها إلى ذكر أمثلة لأشخاص تعرفوا إلى بعضهم بالطريقة التقليدية ويعيشون حياة سعيدة، تعرفهم آمال جيداً وتعرف أنّ ما تقوله عمتها صحيح، إلا أنّها لا تتخيل نفسها مكان أي منهم، ويجعلها ذلك تقتنع أكثر بأنّ السعادة في النهاية مفهوم نسبي. حين تستنفد عمتها كل ما لديها من حيَل تتنهد وتقول بلهجة أقرب إلى الاستسلام:

"يا عمتي والله أنا بحكي من خوفي عليكي، لازم تضمني مستقبلك"

تقترب منها آمال وتمسك بيدها. "والله بعرف، بس يا عمتي ما في ضمان للمستقبل، الواحد لازم يتوكل على الله وما يعمل إشي بس لأنّه خايف من المستقبل، كل شي بوقته حلو". تتكىء بظهرها إلى الخلف ثم تقول بنبرة أقرب إلى السخرية: "بعدين بركي تجوزت واحد وطلع نكد وبخيل ونكد علي عيشتي؟ مش يمكن لو أضل عزابية أحسنلي"

تنزعج عَلَميّة من الكلام. "خدلك عهالحكي الفاضي!" ثم تنظر إلى ثائر الجالس في الطرف الآخر من الغرفة وترفع صوتها مخاطبة إياه. "جهز حالك هاي شكلها بدها تقعد عندك"

تتوقع أن يؤيدها، إلا أنّه يرد عليها بما لم تتوقعه. "وإنت الصادقة شكلي أنا اللي بدي أقعد عندها... بكرة إن شاء الله بصير معها مصاري كتير وبتبني فيلا وبكون أنا عاطل عن العمل ووراي عر اولاد، لأنّه هاد اللي شاطر

فيـه، أخلـف وأرمـي، بتقـوم آمـال بتتبنـاني أنـا ومرتـي واولادي، خاصـة إنهـا رايحـة عـالخليج ورح يكون عندها بير بترول ورا البيت"

تمتعض عَلَميّة، أما آمال فتضحك من قلبها لكنّها تدرك أنّ الدعابة التي قصد بها ثائر استفزاز عمته تحمل في طياتها أبعاداً أخرى وإن لم تكن مقصودة ولم يرها أحد غيرها؛ أبعاد تعطيها أملاً جديداً ومختلفاً خارجاً عن إطار الآمال التي حددها لها المجتمع منذ ولادتها وبدت الآن عصية على التحقيق.

الفصل السادس

من ذاكرتـها

غريب كيف تتغير المشاعر بين يوم وآخر. قبل ثلاثة أيام كانت قد اتخذت قرارها وعزمت عليه وبدأت تفكر في حياتها الجديدة، المختلفة كلياً، كانت متحمسة كما لم تكن من قبل حتى إنّها لو استطاعت السفر في اليوم نفسه لفعلت ذلك من دون تردد. لكن بعد بضعة أيام من إعلانها رغبتها في السفر، بدأ ذلك الشعور المتقد بالحماس يخبو شيئاً فشيئاً لتحل مكانه مشاعر مختلطة من الترقب والتساؤل، وشيء من الشك.

ومما زاد الأمر سوءاً أنّ أمها ما زالت ترفض التحدث إليها، لم تقل لها كلمة واحدة منذ علمت بعزمها على السفر. كانت تحتاج إليها أكثر من أي وقت مضى، ربما لم تكن ستبوح لها بمخاوفها حول العيش وحدها في بلد غريب، لكنّها على الأقل كانت ستجد في أحاديثها أياً كان موضوعها ملاذاً من التفكير في أمور تفضّل التعامل معها في حينها. ثمة شيء مريح في صوت الأم يعرفه المغتربون أكثر من غيرهم. آمال لم تغترب بعد، لكنّها تعرف ذلك الشيء جيداً.

قد تكون جدتها أم عمر شعرت بتلك الحاجة لدى آمال فنست أو تناست موقفها الرافض لسفرها كما تنسى دائماً أي موقف تأخذه من أبنائها وأحفادها خلال لحظات،

أو ربما كانت تفعل ما تفعله دائماً وهي في بيتهم حيث تجد أي موضوع تتحدث فيه بحيث يقود في النهاية إلى سيل من الذكريات عن الأيام الخالية، أيامها في جبل التاج، أو جبل خريطة كما كان يسمى قبل بناء القصور الملكية. كانت تتحين أي فرصة لذكر إحدى قصصها الكثيرة والتي تكرر بعضها أحياناً، وترويها بحنين واضح لأيام لا تتردد في الاعتراف بأنّها كانت الأجمل في حياتها، وتعرف أنّها لن تعود. تبتسم وترتسم معالم الحياة في عينيها الصغيرتين وهي تحكي تلك القصص مما يثير لدى من يراها ويسمعها شعوراً مبهماً بالحنين لأيام لم يعشها. كانت تتحدث عن الجيران كأنّهم عائلة يسكنون في بيت واحد، وتعرف كل الناس حتى يخيّل للسامعين أنّ جميع سكان عمّان وقتئذٍ كانوا يسكنون في جبل التاج. كانت تشير إلى شوارع ومناطق بعينها من دون أن تتعب نفسها في التعريف بها وكأنّها تفترض أنّ كل من يسمعها يعرفها مثلها وإن كان لم يزر جبل التاج في حياته. عاشت في جبل التاج قبل أن تتزوج، وتزوجت فيه، وبقيت هناك حتى بداية التسعينيات حين اضطروا إلى ترك البيت لأنّه أصبح قديماً جداً وكثرت مشاكله. ومع أنّ معظم من تعرفهم كانوا قد تركوا جبل التاج أو رحلوا عن الدنيا في ذلك الحين إلا أنّ الأمر لم يكن سهلاً عليها، وظلت تتردد على جبل التاج لزيارة من بقي من جيرانها هناك بعد وفاة زوجها وانتقالها للعيش مع ابنها عمر الذي كان يحب تلك الزيارات أيضاً إذ كانت تذكّره بالحي الذي كان أشهر من نار على علم فيه لكثرة المشاكل والمشاجرات التي كان يتورط بها في صغره.

"يـا سـتي إنـت بتعرفـي تطبخـي؟" كـان ذلـك هـو المدخل إلى حديث أم عمر

"يعنـي، عـالخفيف، بمشـي حـالي". أجابـت آمـال، مع أنّها كانـت متأكدة أنّهـا سـألتها ذلك مـن قبـل، لكـن لـيس السؤال هو المهم، كما يعرف الجميع.

"ما هو ما بصير يا ستي، إذا مـا بتعرفـي تطبخـي بـدك تقضـيها أكـل مطـاعم، بتنصـحي بعـدين وبيخـرب كسمك. وبعدين هادا مصروف زيادة"

"صح تيتا، خلص بركي علمتيني كم طبخة قبل ما أسافر"

"آى، ليش لأ. بتعرفي وأنا قدك كنت أعرف أطبخ كل شي. طبعاً ما كان كل إشي جاهز زي هلأ، كنـت أنتـف الجاجة من ريشها وأنظفها لحالي"

هنا تغيرت تعـابير وجـه أم عمـر. عرفـت آمـال أنّ مجـرى الحـديث سـيتغير فلـم تعلـق ولـم تسـأل، بـل تركـت جدتها تسترسل في هوايتها المفضلة.

"علـى سـيرة الجـاج، كـان جـدك أبـو عمـر مربـي جاج في بيتنا في جبل التاج. مـا كنّـا نجيـب بـيض مـن برّا، دايمـا كنـت أقلـيلهم البـيض عيـون، بـيض بلـدي خيـره فيـه، هديك الأيام كان الخير كتير، وضلينا هيك حتى إجا أيلول، كان رحمة أبو عمر كل يوم يدبح جاجتين، إلنـا وللجيـران، مـا هـم كـانوا متخبيـين عنّـا... أكتـر إشـي كنـا ناكـل جـاج

وبطاطا، مش عارفة من وين كانوا يجيبوا البطاطا، بتذكر مرة جدك طلع هو وجارنا ورجعوا معهم شوال بطاطا...

بعدين دخل الجيش على جبل التاج، وكانوا الفدائية متخبيين في البيوت، وبتذكر لما عملوا سلاسل في الشارع ،وقتيها طلعوا كل الرجال والشباب يساعدوهم، كانت الدنيا ليل وإجوا دقوا الباب علينا وطلع جدك وخالك عمر معهم، عمر كان صغير بس طلع...

كتير راح فيها أبرياء، منهم جارنا الشركسي، كان وحيد أهله وعنده سبع بنات، إجته شظية قتلته... وما عرفوا يدفنوه! إجوا أخدوا من عنّا فونيك، كنا نستعمل الفونيك هديك الأيام، ولما هديت الأوضاع شوي دفنوه في ساحة قريبة كنا نكب فيها الأشياء الخربانة، كانت زي المزبلة، وبس خلصت الحرب إجوا أهله أخدوه...

بعدين لما صاروا يدخلوا يفتشوا البيوت، دخلوا فتشوا بيتنا، فتشوا كل شي فيه عشان يشوفوا إذا مخبيين سلاح، طبعا ما لقوا إشي، بس وهم بفتشوا كسروا الزينكو تاع خم الجاج وخربوه وهدوا الخم... ومن وقتيها ما عاد جدك ربّى جاج"

تبتسم آمال وهي تتأمل وجه جدتها الذي يحكي ما لا تحكيه كل كتب التاريخ. لقد علّمتها جدتها أسلوباً جديداً في التعبير والسرد لم تتعلمه طوال أعوام دراستها. فهي قد تعلمت في حصص الإنشاء أن تبدأ بمقدمة قصيرة، ومن ثم يأتي العرض الذي فيه زبدة الموضوع وفي النهاية تختمه بسطرين أو ثلاثة على الأكثر، لكن ما لم تتعلمه في

المدرسة هو أن تبدأ القصة بالحديث عن الدجاج، ثم تنتقل بالحديث دون أن تشعر وبشكل يبدو طبيعياً تماماً إلى ويلات الحرب وقصص أشخاص لم يسمع بهم إلا قلة من الناس وسيتحولون بمرور الزمن إلى أرقام وإحصائيات، وتُنهي القصة أيضاً وبشكل طبيعي تماماً بالحديث عن الدجاج...

في لحظات كتلك كانت أم عمر تتحول إلى أرشيف موثق لأحداث يحظر الحديث عنها ولا تجد لها ذكراً في المناهج المدرسية أو الكتب المصرح بنشرها. لم تكن تدين أحداً بل تحكي ما رأته فقط، قصصها وقصص الناس العاديين مثلها. تلك القصص التي ترويها جدتها وغيرها ممن عاصروا أيلول الأسود كانت مصدر آمال الوحيد للمعلومات عن تلك الفترة، إذ كانت ترفض تصديق أي شيء تقرؤه وكثيراً مما تسمعه من الآراء المتطرفة في أغلبها والتي اختزلت القصة برمتها في عنصرية ضيقة تعاظمت في النفوس إلى أنّ طالت كل شيء، حتى مباريات كرة القدم.

إلا أنّ جدتها حين تتذكر جبل التاج تتذكر أكثر من ذلك، فهي تتذكر قصصاً تدفعها إلى الضحك حتى تنهمر دموعها فتدمع عيون من حولها ضحكاً، ومن أطرف القصص التي سمعتها آمال وإخوتها منها مرات عديدة قصة "المسحراتي" أبو عاشور الذي طُلب منه إجراء فحص للبول فأخذ عينة ووضعها في زجاجة وتركها في المنزل لأخذها إلى المختبر في اليوم التالي، لكنّ زوجته كسرتها وهي تنظف البيت، ولشدة خوفها منه أخذت عينة

من بولها ووضعته في الزجاجة. وحين ظهرت نتيجة الفحص عاد أبو عاشور إلى البيت يستشيط غضباً، حيث أخبروه في المختبر بأنّه حامل...

"الله يسامحها، هاي عملة بتنعمل! بس ما هي من خوفها، قد ما كان عصبي، الله يرحمه، صارت عضامه مكاحل ما بتجوز عليه إلا الرحمة"

قصة واحدة تضحكها أكثر من غيرها وهي قصة خالها أبي إبراهيم الذي بلغهم خبر وفاته فهرعت هي وأخواتها إلى منزله حيث وجدنه ممداً ووجهه مغطى بشرشف أبيض. كانت زوجته تبكي وتعول والنساء يحاولن تهدئتها. فجأة ومن دون سابق إنذار سمعن صوت أبا إبراهيم من تحت الغطاء ينادي:

"أم إبراهيم... حطيلي عشا... جوعان..."

يكاد قلبها يتوقف من الضحك وهي تصف منظرها هي وأخواتها الخمس وهنّ يصعدن الشارع الطويل المؤدي إلى بيت خالها بالدموع والعويل وبعد أقل من نصف ساعة ينزلن الشارع نفسه وهنّ يضحكن بلا توقف.

"يومها عملتها على حالي من الضحك" تعترف أم عمر، ثم تعود للحديث عن خالها: "عاش بعديها كتير، يمكن عاش عشر سنين بعديها مات... مسكين دعسته سيارة على نزول المصدار"

تحكي لها كثيراً عن أفعال أمها وخالتيها وخالها عمر في طفولتهم، إذ كان عمر الولد الوحيد والأصغر بين ثلاث بنات أكبرهنّ أمها، ثريا، وأوسطهنّ خالتها أمل التي سميت باسمها، وأصغرهنً خالتها بسمة التي تعيش في السعودية.

"أمل الله يرحمها كانت عاقلة كتير، زيك هيك، وإمك كمان، كانوا عاقلين كتير، ودايماً مع بعض، عشان هيك أمك أصرت تسميك على اسمها... عاد أنا قلتلها هاد فال مش منيح بس ما ردت علي، قالت شو هالحكي الفاضي"

لا تتحدث جدتها كثيراً عن ابنتها المتوفية؛ تتحاشى زيارة ألم قديم هو الأعمق في حياتها، وتنتقل بسرعة للحديث عن شيء آخر، أو شخص آخر.

"بس بسمة كانت حسن صبي" تتغير نبرة صوتها بشكل تلقائي. "كانت قوية وعينها كاسرة زي أختك عروبة، وكانت دايماً دايرة هي وخالك عمر يلعبوا جلول ويتشيطنوا في الحارة، ما هم إجوا على روس بعض، زي التوأم، وإذا ما قدروا يطلعوا يلعبوا برا كانوا يشلموا راسي شلم في البيت... قولي بسمة كانت قوية على هبل، بس عمر كان عكروت! مرة تحداها تنط من فوق الخزانة، والهبلة نطت وكسرت رجلها، يومها عمر أكل قتلة من جدك بتسوى حياته. وفكرك تاب؟ رجع تحداها تنط من فوق السطح، كان سطح بيتنا مش عالي كتير، نزلت عنه وتشعبطت على الشباك بعدين نطت، بس الله ستر، ما صارلها إشي وما عرف جدك بالموضوع،

بس تسلخوا رجليها من الوجع... وهيها كبرت وعقلت وتجوزت، سبحانك يا ربي!"

ثم تعود إلى الحديث عن عمر وكيف كان يسبب لها المشاكل مع الجيران طوال الوقت حتى وصل الأمر بها إلى أن حبسته في غرفته ذات يوم لتضمن ألا يتشاجر مع أحد. بعد ساعة جاءتها جارتها ومعها ابنها الذي ينزف رأسه دماً، ابتسمت أم عمر ابتسامة انتصار لأنّها تعرف أنّ ابنها محبوس في الغرفة وأن هذه المرأة وابنها يفتريان عليه، ولتثبت ذلك قادتهما إلى الغرفة وفتحت الباب، لتتحول ابتسامتها إلى تجهم ممزوج بالخزي والغضب، فعمر لم يكن هناك وكانت النافذة مفتوحة.

"تشعبط عالمواسير وراح فشخ الولد، حسيت حالي قد النملة يومها، ما كان مخلي حدا من شرّه... حتى يوم العيد لبس أواعيه الجديدة وطلع من الصبح، رجع بعد الظهر أواعيه ممزعين ووجهه مطبَّش"

تحكي كثيراً عن زوجها المتوفي، بدءاً من رؤيتها له أول مرة وإعجابه بها، ثم تقدمه لخطبتها، وكيف جلبوا لها تلك العصا مخروطية الشكل والتي يحيط بها عدد من الحلقات المتدرجة في الاتساع لمعرفة قياس إصبعها لشراء خاتم الزواج، وثوب زفافها الذي كان وردي اللون، بخلاف الأثواب البيضاء هذه الأيام، وكيف تحول ذلك الثوب إلى "ناموسية" لحماية أطفالها من البعوض لاحقاً. تسترسل في الحديث لكنّها في كل مرة تعود للحديث عن أبي عمر، فرغم كل شجاراتهما التي شهدت آمال عدداً لا بأس به منها إلا أنّها تعرف مقدار الوحدة التي تشعر بها

جدتها منذ وفاة زوجها. بدا حبها له جلياً حين بدأت معاناته مع المرض، كانت تعتني به، تغير له ملابسه، تغير أغطية فراشه بشكل يومي، تساعده على دخول الحمّام. كان ينظر إليها بعينين دامعتين ويقول: "طيب إنت قمت فيي بمرضي، مين رح يقوم فيكي إنت؟" ورغم أنّها تعرف أنّ أبناءها لم يقصروا يوماً في حقها أو في العناية بها، إلا أنّها تصر على رواية تلك القصة من حين لآخر.

لكن ليست هذه هي الصورة التي تحب أن تتذكر بها زوجها الراحل؛ فحكايات مرضه وأيامه الأخيرة تشغل حيزاً بسيطاً من قصصها، أما الجزء الأكبر فيتضمن حكاياته اليومية البسيطة، كأن تحكي لهم أنّه كان كلما صدرت أغنية جديدة لأم كلثوم ينزل إلى المقهى الذي في رأس الشارع مع بقية الرجال ليستمعوا إليها عبر الإذاعة.

"إنت بتعرفي إنه جدك طلع من الجيش تقاعد مبكر، معلولية بعد ما عمل حادث وبطّل يسمع منيح" تستهل جدتها إحدى القصص التي ترددها كثيراً. "كان أخوه أبو شكري كل ما ييجي عنا يحكيله هاي النكتة، بتمسخر عليه يعني، قال أبو فتحي وأم فتحي بسمعوش منيح، أم فتحي قالت لأبو فتحي: رايح عالصيد؟ حكالها أبو فتحي: لأ رايح عالصيد، حكتله: منيح، فكرتك رايح عالصيد" تضحك آمال لكنّ أم عمر تنتظر الجزء الذي تجده مضحكاً فعلاً في القصة، فتكملها قائلة: "وبعد عشر سنين أبو شكري صار سمعه خفيف وجدك صار سمعه أحسن عشان ركبّوله سماعة، صار هو كل ما يروح عنده يحكيله نفس النكتة" وهنا تكون لها الضحكة الأخيرة.

تتحدث جدتها كثيراً وتضحك أكثر، إلا أنّها في مرحلة ما تتعبها الذكريات فتجلس صامتة ساهمة، ولعلها تتذكر أشياء لا تحب قولها أو تظن أنّهم لن يفهموها فتحتفظ بها لنفسها. قد تحكيها لهم ذات يوم، أو قد تكتبها في مكان ما كيلا تذهب طيّ النسيان، إن وجدت وقتا لذلك.

تفكر آمال في تلك القصص، تزيح ما تزيح من ذاكرتها لتفردها برف خاص في مكان خفي ترجع إليه متى ما احتاجت إلى ذلك. تحفرها في ذاكرتها حفراً وصولاً إلى أدق التفاصيل. تتأمل وجه جدتها من جديد، حتى الخطوط الدقيقة المحيطة بعينيها والتي تزداد كلما اتسعت ابتسامتها وعلا صوت ضحكتها، فهي لا تدري متى ستكون جالسة وحدها في شقة فارغة على بعد آلاف الأميال بحاجة إلى تلك الابتسامة وذلك الصوت وقصة أو قصتين من جبل التاج لتؤنس وحدتها، وتشعرها بأنّها رغم غربتها ما زالت لها جذور في مكان ما.

الفَصْلُ السَّابِعْ

مفترق طرق

كانت صداقات آمال في معظمها مرتبطة بالمكان، لا تذكر أنّها ظلت على اتصال مع أي من صديقات المدرسة بعد انتقالها للجامعة أو من صديقات الجامعة بعد التخرج. كان الأمر أشبه بالسباحة في جدول يصب في نهر ثم في محيط: كل شيء يتغير، تصبح محاطاً ببيئة جديدة وكائنات جديدة. العالم من حولك يكبر وعليك بذل جهد أكبر للبقاء، لا يمكنك الالتفات إلى الوراء.

إلا أنّه من بين جميع صداقاتها دائمة التغير والتجدد كان لاثنتين فقط أن تصمدا عبر الزمن: عرين وندى. بل إنّ صداقتهنّ دامت مدة أطول مما تدوم معظم الصداقات، والآن وهي تستعد لبدء حياة جديدة كان لا بد أن تعمل على بقائهما جزءاً منها.

التقت الفتيات الثلاث في المدرسة الاعدادية، كان ذلك صبيحة أول يوم دراسي عام 1995 في مدرسة سمير الرفاعي الحكومية للإناث. كانت كلّ من ندى وعرين قد انتقلت لارتداء المريول الأخضر بدلاً من الأزرق، وكان ذلك التغيير الوحيد الذي طرأ عليهما، أما آمال التي كانت آتية من مدرسة خاصة مختلطة فوقفت في الممر تحمل حقيبتها وتحبس دمعة كادت تفلت منها حين رأت لأول

مرة هذا العدد الهائل من الفتيات في صف واحد، المشهد الذي يتكرر في أربع شعب. لاحظت عرين - التي عينت نفسها قائدة غير رسمية لشعبتها- الفتاة التائهة في الممر. كانت عازمة على كسب ودّ الطالبات الجديدات لمساندتها في انتخابات "رئيسة الأسرة"، تماماً كما فعلت مع ندى قبل عامين، إلا أنّ الصداقة التي بدأت بدافع مصلحة شخصية بحتة، تحولت إلى صداقة تتجاوز حدود الزمان والمكان والمآرب الشخصية.

مررن معاً بكل شيء: براءة المراهقة المبكرة، الأسرار، الأحلام الكبيرة أحياناً والساذجة أحياناً أخرى، الاكتئاب الذي يرافق مرحلة الثانوية العامة والنقلة النوعية التي رافقت دخولهنّ إلى الجامعة. قُبلت آمال في كلية إدارة الأعمال في الجامعة الأردنية والتحقت عرين بكلية الحقوق. أما ندى فقُبلت في جامعة مؤتة في الكرك، تخصص علم النفس، إلا أنّها وجدت أنّه يمكنها دراسة التخصص نفسه في الجامعة الأردنية من خلال النظام المسائي وبفارق معقول في الكلفة الإجمالية. وهكذا كنّ معاً في المدرسة وفي الجامعة، أو على الأقل في السنة الأولى منها.

تتذكر آمال أول يوم لها في الجامعة، لم تنم ليلتها، وما أن طلعت الشمس حتى حملت حقيبتها على ظهرها كما كانت تفعل في المدرسة، مشت مسافة قصيرة ثم استقلت الحافلة العمومية التي أوصلتها من مجمع العبدلي إلى الباب الرئيس للجامعة الأردنية مباشرة. لا تزال إلى الآن تتذكر الضباب الخفيف الذي كان يملأ الهواء في الصباح الباكر في ذلك الشارع الطويل المؤدي إلى برج

الساعة، ذلك المَعلم الذي حذرها منه أقاربها الذين يدرسون في الجامعة الأردنية، لا لأنّه مكان مشبوه بل لكونه أبرز معلم في الجامعة مما يجعله "مغناطيساً للسنافر"، أي طلاب السنة الأولى على حد تعبيرهم، مما يعرضهم لسخرية الطلاب الكبار. لكن كان لا بد لندى وعرين وآمال من نقطة التقاء واضحة، إذ إنّ وصف المكان الذي تكون فيه أي منهنّ عبر الهاتف الخلوي كانت مهمة صعبة عليهنّ كسنافر، ناهيك عن الوصول إلى ذلك المكان، فكان الخيار الأسلم هو الالتقاء على الرصيف المقابل لبرج الساعة، للتمويه وعدم لفت الانتباه. بعد العام الأول أصبحت عرين تقضي أغلب وقتها مع طلاب الحقوق، بينما كانت ندى مقيمة في (سكوير العلوم)، الذي لا يعدو كونه ساحة مربعة يقف فيها الطلاب أو يجلسون على الرصيف يتبادلون الأحاديث ويختلسون نظرات عابرة إلى من حولهم، إلا أنّه كان نقطة تجمع معتمدة لمن يريد الظهور على الساحة الاجتماعية في الجامعة، ومن ثم أصبحت تقضي أكثر وقتها في مكتب خدمة المجتمع. أما آمال فكانت تنهي محاضراتها وتعود إلى البيت. لم تعد الصديقات الثلاث يلتقين كالسابق، إلا أنّهنّ حرصن على الاجتماع معاً كل أسبوع أو أسبوعين، وبعد التخرج اتسعت الفجوة فلم يعدن يلتقين إلا كل بضعة أشهر، لكنّهنّ بقين على اتصال عن طريق الهاتف، وبعد ظهور الشبكات الاجتماعية على الإنترنت قلّت المكالمات الهاتفية، وأصبحن يجتمعن مرتين أو ثلاثاً في السنة على الأكثر إذ انشغلت كل منهنّ بحياة تختلف اختلافاً جذرياً عن حياة صديقتيها، إلا أنّهنّ كنّ كلما يلتقين يشعرن بأنّهنّ كنّ معاً

بـالأمس، لـم يختلـف علـيهنّ شـيء سـوى كميـة الأخبـار الجديدة الكبيرة التي قد لا يتسع اللقاء لها كلها.

مـن هنـا، كـان لـدى آمـال الآن أكثـر مـن سـبب يـدعوها للاتصـال بصـديقتيها واقتـراح لقـاء قريـب، لـيس لأنّها لـم ترهما منذ أكثر من ستة أشـهر فحسب بل لأنّها ولأول مرة منذ فترة طويلة تحمل أخبـاراً جديدة ومفاجئـة، بخلاف معظم الأحيان حيث تتولى الحديث ندى أو عرين، التـي لا تجـد أي منهمـا وقـت اللقـاء كافيـاً لسـرد تفاصـيل حياتهـا الحافلـة فتنهـي اللقـاء بالعبـارة المشـهورة والتـي لا تتعدى كونهـا كلمـات تتبخـر فـي الهـواء حـال النطـق بهـا: "لازم نرجع نشوف بعض عن قريب، شو عندكم الأسبوع الجاي؟"

حاولت الاتصال بعرين أولاً، عـرين التـي جعلتهـا تعيد النظر فـي أفكارهـا حـول إمكانيـة تغيـر النـاس، ومـدى التغيير الذي قد يطرأ عليهم. جميعنا نتغير... تتغير ظروفنا وأفكارنـا وطريقـة تعاملنـا مـع الأمـور، لكـن؛ هنـاك دائمـاً إطار معين يكون التغير محدوداً بداخله، أو على الأقل هذا ما كانت تظنه، إلا أنّ عرين أثبتت لها أنّ التغيير فـي كثير من الأحيان يكون دوامة تأخذ كل ما تجده في طريقها.

لا تتذكر آمـال أنّهـا رأت شخصـاً يتمتـع بشخصـية متفردة وقوية مثل عرين. كانت ثقتها بنفسـها وهـي تتحدث فـي أي موضـوع تجعلـك تقتنـع بـأن مـا تقولـه هـو عـين المنطـق، وإن كـان لا يمـتّ للمنطـق بصـلة. كانـت قياديـة صارمة إلى أبعد الحدود، تفعل الأمور علـى طريقتهـا ولا تقبل اعتراضـاً من أحد، ورغم ذلك كانت فتيـات الصـف ينتخبنهـا رئيسـة للأسـرة كـل عـام، فرغم نرجسيتها كانـت

الطالبات يعرفن أنّها قادرة على تحقيق جميع مطالبهنّ. كل هذا وأكثر جعل دخولها كلية الحقوق يبدو أمراً بديهياً، وكان الجميع يتوقع أن تصبح محامية لامعة وربما قاضية. إلا أنّه بدأت تطرأ عليها بعض التغيرات، فبعد الجامعة مباشرة ارتبطت عرين بشاب من عائلة ثرية. لم تستغرب آمال كثيراً فقد كانت تعرف أنّ عرين كانت ترغب في الاستقرار وتكوين أسرة، لكنّها كانت واثقة أيضًا بأنّها ستكمل دراساتها العليا وتمتهن المحاماة وتصبح من أهم الشخصيات في ذلك المجال. لذا، لم تكن صدمة آمال بسيطة حين التقت بعرين لأول مرة بعد خطبتها وسألتها عن خططها المستقبلية، إلى جانب الزواج.

"عم تتدربي في مكتب محاماة؟"

"بصراحة، داومت 3 أيام في مكتب محامي بقرب لخطيبي وبعدين زهقت... شو جابرني على هالقصة؟ مش مضطرة"

كانت تلك الصدمة الأولى، فقد أدركت آمال أنّ ندى كانت محقة حين قالت إنّ عرين وقعت فريسة المغريات المادية وتخلت عن أي طموح لديها.

"وبكرة كمان بمسح شخصيتها" كانت ندى تقول، إلا أنّ آمال كانت تجادلها في ذلك كثيراً، فكيف يمكن لأحد أن يمسح شخصية عرين؟ ليست فتاة عادية، إنّها بعشرة رجال. لم تكن ندى تجادلها كثيراً بل كانت تقول إنّ الأيام ستكشف لها صدق توقعاتها. بعد زواج عرين التقت بها آمال مصادفة في أحد مراكز التسوق وجلستا معاً ساعة أو أقل لتبادل الحديث مع كوب من القهوة، وكانت تلك الساعة

كفيلة بإثبات صدق ما توقعته ندى. سألتها آمال عن حياتها بعد الزواج، وأشارت إلى آثار السعادة الواضحة عليها إذ إنّها ازدادت جمالاً منذ رأتها آخر مرة.

"ما هو طبعاً، لازم الوحدة تهتم بحالها، ما هو الزلمة بتجوزك عشان إشي واحد". قالت عرين بثقتها المعهودة، لكنّ آمال لم تقتنع

"أيوة بس في أشياء تانية مهمة كمان، شخصيتك، تفكيرك..."

"حبيبتي..." قالت عرين مقاطعة "لما يتسكر عليكي إنت وجوزك باب واحد مش رح يقعد يناقشك بأفكارك وفلسفتك في الحياة، هادا الحكي كله بتبليه وبتشربي ميته"

لم تعلق آمال، ظلت صامتة. لاحظت عرين عدم اقتناعها فتابعت بنبرة أقل حدة، كأنّها هي نفسها غير مقتنعة بما تقول:

"لما الست والزلمة ينحطوا في بيت واحد، في راس لازم ينكسر". راحت ترتشف القهوة كأنّها تحاول تفادي سؤال واضح، فوفرت عليها آمال حرج الإجابة.

لم تجب عرين على الهاتف، افترضت آمال أنّها مشغولة على الأرجح، فلتتصل بندى...

فكرت وهي تطلب رقم ندى فيما كانت ستقوله لو كانت جالسة معهما ذلك اليوم وسمعت ما قالته عرين، كان النقاش سيدوم ساعات ولن تقنع أي منهما الأخرى على الأرجح، فكيف يمكن أن تقتنع ندى بنظرية تحول المرأة

إلى دمية أو وسيلة لإفراغ غرائز الرجل، لا أكثر ولا أقل؟ قد لا تملك ندى أسلوب عرين الواثق في التعبير والذي يحول كلامها إلى ما يشبه الحقائق العلمية، إلا أنّ قوة شخصيتها تكمن بتمسكها بمبادئها وقناعاتها التي كونتها من خلال التجربة والاطلاع. نعم، ندى أيضاً تغيرت، لكنّ تغيرها كان تدريجياً ومنطقياً، بل إنسانياً. كان ذلك النوع من التغيير الذي لا تستقيم الحياة من دونه. ندى لم تتغير، بل نضجت.

كانت ندى ناشطة في مكتب خدمة المجتمع في الجامعة، ناهيك عن الأنشطة الثقافية الخارجية التي كانت تحاول حضور أكبر عدد ممكن منها، وبعد التخرج عملت مع منظمة حقوقية تهتم بشؤون النساء، فكانت تلتقي بنساء يحكين لها قصصاً لم يسمع بها معظم الناس حتى في الأفلام. كانت تسافر كثيراً خاصة إلى الدول التي تشهد تدهوراً في وضع المرأة، إضافة إلى المؤتمرات التي كانت تقام في بلدان عربية وأجنبية. كانت آمال تنتظر عودتها من كل رحلة لتتصل بها وتخبرها بأهم الأمور التي رأتها وعاشتها هناك، في مكالمة تدوم أكثر من ساعة لا تكاد آمال تقول فيها شيئاً، بل تصغي فقط بينما تسرد ندى تجارب ووقائع قد لا تعيشها آمال إلا في خيالها.

كان الحديث يتحول في النهاية إلى الأمور المعتادة، المجتمع والعائلة، إلا أنّ ندى كانت لديها دائماً قصة مختلفة...

"تخيّلي إنّه أبوي مفكرني مش راضية أتجوز عشان متعقدة من قصص النساء المعنفات اللي بشوفها"

تقول ندى ضاحكة "مش عارف إنّه أنا اللي بخوف عشان هيك ما حدا أصلاً بفكر يقرب علي..."

تفكر آمال في ندى وتتذكر عرسان عمتها عَلَميّة. كيف يمكن لرجال بتلك العقليات التوافق مع فتاة مثل ندى؟ كما لا يمكن أن ترضى ندى بأن "يُكسر رأسها" مثل عرين. تتساءل آمال كم يبقى من الرجال بعد حذف الفئتين السابقتين.

كان هاتف ندى خارج التغطية. حاولت الاتصال بعرين مجدداً ولم ترد. حاولت الاتصال بكلتيهما مجدداً بعد ساعة، ثم بعد ساعتين، إلا أنّها لم تفلح في الوصول إلى أي منهما. لا بد من وجود سبب ما. تذكرت حسابها على موقع (فيسبوك) الذي لم تستخدمه منذ أسبوعين، فشبكات التواصل الاجتماعي بالنسبة إليها كانت مرتبطة بالعمل حيث كان يُطلب منها استخدامها للترويج للموقع والمنتديات، أما حسابها الشخصي فلم تكن تطلع عليه أكثر من مرة في الأسبوع، لكنّ ندى وعرين كانتا تستخدمانه كثيراً وبشكل منتظم؛ فربما تجد هناك سبباً لاختفائهما المفاجيء.

على صفحة عرين الشخصية وجدت صورة عليها تاريخ اليوم السابق لها هي وزوجها وابنيهما في مكان ما على البحر، فعرفت أنّهم في إجازتهم السنوية والتي عادة ما تمتد طوال أشهر الصيف. أما ندى فقد كتبت على صفحتها أنّها سافرت في مهمة عمل مفاجئة لمدة شهرين في أربيل. في الوقت التي ظنت فيه آمال أنّها ستكون لأول مرة هي حاملة الأخبار الجديدة والتي ستثير سيلاً من

الأسئلة فتشعر لبرهة بأنّها مركز كون صغير من نوع ما، كانت كل منهما مشغولة بصنع أخبار جديدة في مكان آخر.

ضغطت على زر "رسالة جديدة"، كتبت في المربع الأبيض:

"مرحبا صبايا، أنا مسافرة على دبي بعقد عمل وكنت حابة أشوفكم قبل ما أسافر، بس شكله ما في نصيب"

أسندت ظهرها إلى الكرسي، قرأتها مجدداً، مرة. مرتين. قرأتها مرة ثالثة... همت بتعديل العبارة الأخيرة ثم حذفت ما كتبته، وأغلقت الجهاز.

الفصل الثامن

ألا يترك فلسطين

لم يفلح شيء في التخفيف من توتر آمال والضيق الذي راح يتفاقم داخل صدرها. كان عليها البوح بذلك لشخص ما، شخص لا يحاكمها ولا يدين قراراتها بل يستمع فقط. لم تكن تعرف ماذا ستقول بالضبط، ولا تعرف ما الذي تريده من ذلك، ربما كانت تريد التفكير بصوت مرتفع، أو تريد أن ترى ردة فعلٍ تبارك قرارها وتؤيده بشكل يجعلها تقتنع به بشكل حقيقي أكثر مما تظهر.

ولسبب ما كانت آمال كلما شعرت بضيق تجد نفسها واقفة على باب أم يحيى. كانت تعرف أنّها على الأرجح ستعيد عليها القصص والحكايات نفسها: تركها للمدرسة، زواجها، وفاة زوجها، أبناؤها الخمسة، خروجها من فلسطين... لقد سمعت كل تلك القصص وغيرها عشرات المرات، إلا أنّها حين كانت تحتاج إلى ملجأ ما، كانت تجد نفسها بحركة أقرب إلى اللاإرادية تمشي نحو الشقة المحاذية لشقتهم، تريد سماع تلك القصص التي سمعتها حتى كادت تحفظها عن ظهر قلب، ولا تريد سماع غيرها. ربما كان السبب هو الارتياح إلى المألوف،؛ ذلك الاطمئنان الذي نشعر به حين نعرف ما علينا توقعه، ونعرف ما سيحدث، شيء قد لا تجده إلا في القصص التي تتكرر على مسامعك مرة بعد مرة بحيث تعرف نهايتها وأن التاريخ قال كلمته فيها وانتهت - وإن كانت في

الحقيقة لم تنته- لكنّ تكرارها يولد ألفة غريبة تزيح عنها غموض المجهول، وتمنحها ذلك الاطمئنان المزيف لأنك "تعرف"، أياً كان ما تعرفه.

لا تعرف آمال إن كانت أم يحيى تنسى حقاً أنّها قد روت القصص ذاتها سابقاً أم أنّها تتذكر ذلك وتتجاهله فحسب؛ فهي دائماً ما تجد طريقة لتحويل مجرى الحديث بحيث ينتهي بفرصة مواتية لبدء واحدة من قصصها. فسرت آمال الأمر بأن أم يحيى تتعمد تكرار تلك القصص، لكنّ ذلك لا يهم؛ فلو كانت مكانها لفعلت الشيء نفسه، كيف لا وحكايتها هي كل ما تملك ودليل وجودها ووجود شعب بأكمله؟

عادة ما يبدأ الحديث بالقصة نفسها وإن اختلفت الطرق المؤدية إليه، فقد يكون الحديث عن الأطفال أو عن المدارس أو عن أفضل شامبو للشعر أو حتى مجرد تعليق على إعلان تلفزيوني تظهر فيه ممثلة أو ملكة جمال سابقة. أياً كان الحديث السابق للقصة فهو ليس مهماً، لأن القصة تبدأ دائماً بالطريقة نفسها، من الزمن نفسه، عن طفلة كان عالمها محصوراً في قرية صغيرة قرب القدس، ومستقبلها - الذي سيمسي بعد حين ماضيها البعيد- كان لم يُخلق بعد.

"وأنا صغيرة بقى شعري طويل وأسود مثل الليل، بقيت أحلى وحدة بخواتي" تبدأ أم يحيى القصة بلهجتها الفلاحية المميزة. "بقينا سبع خوات، كنت أصغر وحدة وكان أبوي الله يرحمه يموت عليّ، قال مريم لازم تروح عالمدرسة، أنا لحالي من دون كل خواتي. بس أنا كنت أكره المدرسة، ومرة قلت للأستاذ بدي أروح عالحمّام،

قمت طلعت وهربت عالدار. قام الأستاذ ربحي، الله يرحمه مات في النكبة، قام يتطّلع علي من شباك الصف ويقول: هاي مريم بتنط وشعرها بنط معاها. يومها رجعت عالدار أعيّط لأبوي، قلتله بديش أقرا في المدرسة، قال يلعن أبو المدرسة!"

حين تبدأ أم يحيى برواية قصة هروبها من المدرسة تعرف آمال أنّها لن تتوقف حتى تنهي القصة كلها - قصة خروجها من فلسطين ومجيئها إلى الأردن- فكل شيء مرتبط ببعضه، وكل قصة تؤدي إلى ما بعدها؛ فشعرها الأسود الطويل الذي ميزها عن بقية أخواتها يقود للحديث عن شامتها المميزة وعينيها الواسعتين وغير ذلك من محاسنها التي جعلتها - حسب قولها- أجمل فتيات القرية.

"بقيت أحلى بنت في سلوان" تستطرد أم يحيى دون أن يطلب منها أحد ذلك، أو لعلهم طلبوا ذلك بصمتهم الذي يغري أي شخص بمتابعة الكلام. "بس صرت بنت خمستعشر سنة انخطبت لابن خالتي، قام ابن عمي بس سمع انجن وعدم عقله، قال كيف؟ هاي بنت عمي وأنا أولى فيها، بطخها وبطخه! قام ابن خالتي قال لا يا عمي أنا بديش مشاكل، خذها وأنا باخذ أختها..."

"وتجوزتيه؟" تسأل إحدى الجارات التي تسمع القصة للمرة الأولى.

"آى تجوزته، أنا تجوزت ابن عمي وأختي تجوزت خطيبي، قصدي ابن خالتي. بس أنا مكنتش غشيمة، اشترطت وتشرطت عليه، وخليته يكتب شرط في

العقد إنّه لا يترك فلسطين وإذا تركها أكثر من سنة بكون حرة في حالي"

"شف ما أقواهن الفلاحات! ورضي بالشرط؟" تسأل الجارة نفسها بلهفة

تضحك أم يحيى وهي تشد منديلها الأبيض الذي يظهر نصف شعرها وتسحبه ليغطي نصف وجهها. "وكيف ما يرضى؟ بس عاد ما فرقت كتير، بعد خمس سنين وقع ابن عمي من فوق عمارة وهو بكحل حجر، ما هو بقى كحّال، وترملت وأنا بنت عشرين سنة وعندي أربع اولاد"

تصمت الحاضرات، تكسر أم يحيى الصمت بتنهيدة وهي تكشف وجهها من جديد. "قال لا يترك فلسطين!، هيو الزلمة مات واحنا اللي تركناها"

تتذكر آمال أول مرة سمعت فيها هذه القصة، كانت مذهولة بتفاصيلها وتقلباتها بحيث جلست صامتة تنتظر المزيد، أما أمها فلفتت نظرها نقطة لم تعرها آمال انتباهاً كثيراً في ذلك الحين.

"يا أم يحيى، أربع اولاد في خمس سنين؟ هادا كيف لو جوزك عاش أكتر!"

يحمرّ وجه أم يحيى وتشد غطاء رأسها فوق وجهها من جديد، إلا أنّه لا يفلح في إخفاء ابتسامة تسللت عبر الزمن فأعادتها من جديد عروساً في الخامسة عشر من عمرها وهي تقول "أنا داري، ما كنتش أعرف"

تضحك أمّ آمال طويلاً، لا تفهم آمال التي كانت وقتئذٍ في المدرسة الإعدادية سبب ضحكها لكنّها تضحك لضحك أم يحيى وهي ما زالت تشد الغطاء على وجهها.

يخبو الضحك شيئاً فشيئاً، تحدق أم يحيى إلى البعيد، إلى اللاشيء، تتنهد وتكمل قصتها.

"ظليت بفلسطين لقبل النكسة بشوي، هو صحيح جوزي مات بس أنا ظليت قاعدة على قلب اليهود، والله عشنا أيام حلوة، كانت كل الناس تعرف بعض. مرة قمت الساعة ثلاثة الصبح على صوت الباب بخبط، قلت ليحيى قوم افتح شوف مين، قام فتح الباب ولا هم الجارات بقن رايحات يخبزن العجين لقوا المخبز مسكر، بقى المخبز جنب دارنا، قاموا أجوا علينا، قلتلهن أهلا وسهلا، هو المخبز بدّو يطير؟"

فجأة تتذكر أم يحيى إحدى تلك الجارات، وتضحك طويلاً لمجرد ذكر اسمها. "هذي عيشة أم النوادر". تحكي قصصاً كثيرة عنها، وفي كل مرة يبدو أنّها تضيف قصة جديدة، لكنّ القصة الثابتة والتي يجب أن تذكرها كل مرة هي حين حملت عيشة سلة كبيرة مغطاة بشرشف قماشي وذهبت لزيارة إحدى الجارات التي كانت طريحة الفراش. فرح بها أهل البيت وشكروها على هديتها الكبيرة وعاتبوها لأنّها أتعبت نفسها بهذا الحمل الثقيل، وأكدت لهم هي عدة مرات أنّه "ما في إشي من واجبهم"، إلا أنّهم حين كشفوا الغطاء عن السلة وجدوها مليئة بكل أنواع القمامة والخردوات...

تسترسل أم يحيى في قصص حدثت قبل ستين عاماً أو أكثر وكأنّها حدثت البارحة، وتعيد في كل مرة التفاصيل ذاتها كما لو كانت تقرؤها من كتاب مفتوح أو تسعى تأكيد إلى صحتها بما لا يدع مجالاً للشك. حكاية تتبع حكاية، وقصة تجر قصة حتى يبيت السؤال حتمياً، ولا بد أن تسأله إحدى الجالسات في وقت ما سواءً كانت تعرف القصة أم لا، فالتسلسل الروائي يحتم سماع القصة للنهاية في كل مرة...

"كيف طلعتي من فلسطين؟"

تتنهد أم يحيى من جديد، لا تدري آمال بعد سماعها القصة عشرات المرات إن كانت هذه تنهيدة مفتعلة لإضفاء جو من الأسى المستحق على القصة أم أنّه أسى حقيقي ثابت رغم التكرار، والاعتياد عليه لا يغير فيه شيئاً. القصة نفسها لا تتغير، وتثير المشاعر نفسها في كل مرة، إلا أنّها تبدو أكثر إيلاماً مع تقدم أم يحيى بالعمر وزيادة وزنها وتدهور صحتها.

"أنا ما طلعت وقت النكسة مع النازحين، أنا طلعت بخاطري في أول السبعة وستين، بخاطري ومش بخاطري... يحيى صار بدّو يروح يدرس في الجامعة الأردنية، قلت بروح معاه بقعدلي شهرين بتطمن عليه وبرجع، وبس وَصَلنا عالجسر قاموا اليهود القوّاصين أخذوا الهويات، قال بصيرش نطلع ومعنا هوياتنا، على أساس نوخذهم واحنا راجعين... وهذا وجه الضيف! مالكوش هويات عنا"

"وما رحتي بعديها على فلسطين؟" تطرح آمال السؤال بشكل بديهي

"امبلى، رحت مرتين" تجيب أم يحيى بلا حماس يُذكر. "ما أنا بطلعلي تصريح عشان ولاد عمومتي هَناك. بقدر أروح هسا، بس..."

تصمت أم يحيى قليلاً ويصمت الحاضرون، كأنّهم يفهمون ما تريد قوله؛ فبعد أن كان عالمها وبيتها في ذلك المكان الذي عاشت فيه حياة ما زالت تستعيد تفاصيلها إلى الآن، ذاك المكان الذي كانت تعرف كل شبر فيه، كل شجرة، وكل بيت، وكل امرأة ورجل وشيخ وطفل، المكان الذي تعرفه أكثر مما تعرف نفسها... بعد كلّ ذلك أصبحت تزوره ضيفة بتصريح عليها انتظاره من نفس الأشخاص الذين أقفلوا بابه في وجهها وحكموا عليها بالشتات قبل أكثر من خمسين عاماً. أي ذلّ هذا؟

تستعيد آمال كل تلك التفاصيل بما فيها حركات وجه أم يحيى، تنهيداتها، ضحكاتها، وجومها المفاجيء، تتذكر كل ذلك وهي تقف ببابها تواقة إلى هذا المألوف الذي تأمل أن يعطيها استراحة مؤقتة من حيرتها الملحة. تسمع صوت خطوات أم يحيى المتثاقلة تتجه نحوها، تفتح الباب فتستقبلها بفرحتها العفوية، تدعوها للدخول، تجلسان، يبدأ الحديث، تتعمد آمال إعطاءها الفرصة لبدء قصتها كالمعتاد، تتعمد ذكر موضوع سفرها، فلا بد أنّ أم يحيى ستجد رابطاً لذلك مع قصتها بكل سهولة، إلا أنّ الأمر كان مختلفاً هذه المرة. لم تلمع عينا أم يحيى ولم تتنهد، ولم تنطلق في رحلتها السردية المعتادة والتي جاءت آمال خصيصاً من أجلها، لم يحدث شيء من ذلك. هذه

المرة اكتفت أم يحيى بالتحديق إلى آمال بدهشة يخالطها شيء من الأسف، ولم تقل لها شيئاً سوى جملة واحدة اختصرت كل ما تريد قوله، وكل ما كانت آمال تخشى سماعه...

"من طلع من داره... قل مقداره"

الفَصْلُ التَّاسِعْ

ثائر بلا قضية

صباح اليوم التالي استيقظت آمال لتجد رسالة في بريدها الإلكتروني تبلغها بصدور تأشيرة العمل الخاصة بها، وأن السفر سيكون خلال ثلاثة أسابيع. داهمها خوف مفاجيء، فرغم أنّها كانت تنتظر تلك الرسالة إلا أنّ شيئاً ما بداخلها كان يرجو أن يصل الرد برفض تأشيرتها لأي سبب من الأسباب، وإن لم تستطع التفكير بسبب منطقي.

لم ترد على الرسالة. نهضت إلى خزانتها وأخرجت منها بعض الملابس التي تحتاج إلى كيّ، وأخرى لا تحتاج إلى ذلك لكنّها قررت كيّها على أي حال. هذا ما تفعله حين ينتابها التوتر، تحب تمرير المكواة على الملابس المجعدة ومن ثم رؤيتها تعود مستوية وأنيقة من جديد، بكل سهولة. تتمنى لو كانت تستطيع ترتيب حياتها هكذا، بجرة مكواة. تتأمل الملابس بعد الانتهاء من كيّها فتشعر بفخر سري، كأنّها تتأمل قطعة فنية. يتوتر الفنانون فيرسمون ويكتبون القصائد، هي لا تقل عنهم في شيء، موهبتها مختلفة لا أكثر.

عادة ما يستغل ثائر الموقف بأن يذهب ويجلب قمصانه التي تحتاج إلى كيّ ويبدأ بالتحايل عليها بطرق مختلفة لتكويها له. "بتعرفي إنّه لما تحطي المكواي بالفيش بتسحب نص دينار كهربا؟ قلت نوفر استهلاك". ما لا

يدركه ثائر هو أنّه لا يحتاج إلى أي أعذار لإقناعها بكيّ قمصانه، فحين يتملكها التوتر تكون مستعدة لكي ملابس الحي بأكمله.

"هات" تقول آمال "فش داعي تسمّعلي كتاب علوم الصف الخامس". تعرف كم تشتكي أمها من كثرة غسيل ثائر وكثرة ملابسه التي تحتاج إلى الكي، إذ كان يصر على كي جميع ملابسه حتى ملابس الرياضة التي يرتديها كثيراً بحكم عمله في نادٍ رياضي. تتذكر ثائراً قبل بضعة أعوام حين كان يعود إلى البيت وملابسه قد انقلبت سوداء لشدة اتساخها، ناهيك عن كونها ممزقة في كثير من الأحيان. من كان يتخيل أنّ ثائراً بكل طيشه وعدم اكتراثه سيصبح ذات يوم مهووساً بأناقته ونظافة ملابسه؟

ثائر يصغر آمال بخمس سنوات، فقد وُلد أواخر عام 1987 وتزامن وصوله إلى العالم مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، فأسماه جده أبو غازي بثائر. تصف أمّ آمال فرحة أبيها بالمولود، وتصر على أنّ فرحته العارمة كان سببها أنّ المولود ذكر. "هو بقول إنّه فِرح كتير عشان قعدنا 5 سنين نحاول نخلف مرة تانية عبال ما زبطت والله رزقنا فيه، بس أنا بعرف إنّه كان مبسوط عشانّه ولد. الزلمة بحب الولد"

ربما كان أبوها يرغب في إنجاب ولد بسبب الضغط الاجتماعي أو لنزعة فطرية فيه، إلا أنّ آمال لم تشعر يوماً بأنّه فضّل ثائراً عليها أو على أختها، بل على العكس، حين بلغ ثائر سن المراهقة وكثرت مشاكله كان والده كثيراً ما يقارنه بأختيه ويعايره بهما: "البنات عمرهم

ما جابولي مشاكل ولا وجع راس، والولد كسر ظهري!" وكثيراً ما كانت عروبة تستغل الموقف لتعبر عن أفكارها الرافضة للهيمنة الذكورية في المجتمع: "طبعاً، ما هو الواحد بقتل حاله عشان يجيب ولد يحمل اسمه واسم العيلة، كيف بده يحمل اسم عيلة وهو هامل وسرسري؟" ثم تستمر في الحديث عن أنّ حمل اسم العائلة يكون بتحقيق الانجازات وخدمة البشرية، وبعد ذلك تتطرق إلى موضوع تغيير الاسم بعد الزواج وتعد أباها بأنّها لن تغير اسم عائلتها مهما كان كي تبقى معروفة به وترفعه عالياً. طبعاً لا يسمع أبوها معظم ما تقوله، فباله يكون مشغولاً بابنه الذي خرج من البيت بعد شجار كبير ولم يعد حتى منتصف الليل.

لم يكن ثائر يختلف كثيراً عن أي مراهق طائش بعمره، وما زالت أمه إلى الآن تردد أنّ الله وحده حماه من نفسه ومن غيره؛ إذ إنّ المشاكل التي كان يتورط بها كثيراً ما كانت تنتهي بغيره من الشباب بدخول المستشفى أو الإصابة بعاهات مستديمة وندوب دائمة في الوجه، ولعل خروجه من تلك المشاكل سالماً هو ما جعلها تصبح موضوعاً للضحك عند تذكرها، وما زالت موضوعاً شيقاً يجعل الأقارب يتجمعون حول ثائر في اللقاءات العائلية لسماع بعض مغامرات أيام طيشه.

ولا تقتصر بطولة القصص على ثائر وحده، فهناك بطل آخر يتردد ذكره في معظم القصص، ذلك هو خاله عمر، إذ لم يكن ثائر يجرؤ على الاتصال بوالده حين يقع في مشكلة أو يتم أخذه إلى مخفر الشرطة. فعل ذلك

مرة واحدة حين قبضت عليه الشرطة يقود سيارة صديقه من دون رخصة قيادة، إلا أنّ أباه قال له إنّ عليه أن يتدبر أمر بنفسه كما أوقع نفسه بالمشكلة بإرادته، وأغلق الخط. إلا أنّ ثائراً لم يكن يتصل بخاله ليكفله لدى الشرطة فقط، بل كان يجد فائدته الحقيقية في وقوفه إلى جانبه في المشاجرات و"الطوش" التي يخوضها. لعل أكثر تلك القصص طرافة تلك التي تحكيها الجدة أم عمر، حيث كانت جالسة مع عمر حين اتصل به ثائر مستنجداً به في مواجهة شاب شتمه وضربه وأطاح به أرضاً. في تلك اللحظة رد عمر برزانة وحزم جعلت أمه تظن أنّه سيتعامل مع الموقف بعقل وروية، حيث قال: "ثائر، لا تحكي معاه ولا تقرب عليه ولا تعمل إشي" لكنّ فرحتها لم تكتمل حيث أتبع ذلك بعبارة أخرى بنبرة أكثر حدة: "أنا هيني جاي أدعسلك في بطنه"

إلا أنّ القصة التي غيرت حياة ثائر بشكل فاق توقعات كل من يعرفه كانت حين ادعى على رجل بأنّه ضربه وتهجم عليه، وظلت الشرطة تبحث عن الرجل ثلاثة أيام وحين قبضوا عليه طلبوا من ثائر أن يحلف اليمين على أقواله، وهو الأمر الذي لم يحسب حسابه، ورغم كل ما كان به من افتقار للشعور بالمسؤولية وعدم المبالاة بأي قيم أو مبادىء، إلا أنّه كان يعرف أنّ اليمين الكاذب أمر لا مزاح فيه، وأن عواقبه قد تكون وخيمة أكثر مما يتصور. أو لعل السبب كان نشوءه في مجتمع متدين بالفطرة، أضحى فيه الإيمان بالثواب والعقاب جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الجمعية للناس. عند ذلك اضطر إلى الاعتراف بالحقيقة وبأنّه هو من بادر بضرب الرجل،

وكاد ذلك يكون سبباً بدخوله السجن إلا أنّ خصمه أسقط حقه، فنجا من السجن لكنّه لم ينج من توبيخ الشرطة ولا من عقاب أبيه. كانت أول مرة يشعر بجدية الأمر، إلا أنّها في المقابل كانت أول مرة يشعر فيها بأنّه رجل حيث عرّض نفسه لدخول السجن لتمسكه بمبدأ ما، فيما كان باستطاعته الإصرار على الكذب. المفارقة في الأمر أنّ خاله عمر حين عرف أنّ ابن أخته هو من بادر بالضرب لمعت عيناه وقال: "والله هادا إشي بيرفع الراس!"

منذ ذلك اليوم لم يعد ثائر المراهق الطائش الذي يقيس رجولته بعدد الكدمات والخدوش التي يتركها على وجوه الآخرين. منذ ذلك اليوم أصبح ثائر يتصرف كمن يحاول أن يثبت أنّه أصبح رجلاً على قدر المسؤولية. التفت إلى دراسته ونجح في الثانوية العامة أخيراً بعد أن كان قد رسب في العام السابق، ولعل محاولاته المستمرة لإثبات جديته أمام أبيه بشكل خاص هي ما دفعه للالتحاق بكلية الحقوق، فقد كان يعرف أنّها رغبة أبيه الذي كان قد درس الحقوق عامين في الجامعة ثم اضطر إلى ترك الدراسة لأسباب لم يكن يحب التطرق إليها، ولعل ذلك كان سبب غضب أبيه غير المسبوق وحادثة صينية المقلوبة الشهيرة حين أخبره ثائر برغبته في تحويل تخصصه من الحقوق إلى الرياضة. برر والده غضبه بأن ثائراً سيكون قد ضيّع سنة دراسية كاملة بتحويله تخصصه بعد العام الأول، ورغم أنّ ثائراً شرح له أنّه وفقاً لنظام الجامعة والمواد التي درسها خلال ذلك العام سيكون متأخراً بفصل دراسي واحد فقط؛ إلا أنّ أباه لم يغير موقفه، فبات واضحاً أنّ ذلك لم يكن السبب الحقيقي وراء غضبه. كان ثائر

يعرف السبب الحقيقي؛ فوالده يرى هذا التصرف عودة لطبيعته القديمة وعدم اكتراثه وانعدام حس المسؤولية لديه، بعد أن ظن أن ابنه الوحيد أصبح رجلاً ناضجاً أخيراً. لكنّ ثائراً كان مصمماً على قراره وحاول أن يشرح لأبيه أسبابه مراراً وتكراراً لكن بلا فائدة، كان يرفض مجرد الاستماع إليه.

حاولت آمال التحدث إلى ثائر لإقناعه بالعدول عن قراره، إلا أنّ ما قاله لها جعلها تتأكد أنّ أخاها قد نضج وتغير فعلاً، وأنّه يعرف ماذا يفعل.

"شوفي آمال" يقول لها ثائر بنبرة جدية قلما تصدر منه. "إنت بتعرفي إني ما دخلت حقوق إلا عشان أبوكي، والوضع مش ماشي معي". ثم يقرر أن يدعم حجته بما يضفي طابعاً بطولياً على قراره. "بعدين، إذا تخرجت من كلية الحقوق وصرت محامي بكون قدامي طريقين: يا بدافع عن المساكين والمظلومين وبموت من الجوع، يا إما بدافع عن الحرامية والمجرمين وبعيش ملك"

"مين حكالك هالحكي؟" تقول آمال مستنكرة تعميمه الجائر.

"إنت احكيلي، كيف ممكن قاتل يعترف بجريمته ويمثلها وبالآخر يطلع براءة؟"

تفهم آمال ما يقصده ثائر، إنّها تلك الجريمة التي هزت المدينة وراح ضحيتها رجل وسيدة دخل لص إلى

منزلهما ولما انتبها لوجوده أطلق النار عليهما فأرداهما قتيلين. تم القبض على القاتل واعترف بالجريمة وقام بتمثيلها، إلا أنّه قام بعد ذلك بتوكيل محامية ادعت أنّه اعترف تحت التعذيب وأخرجته من الموضوع "مثل الشعرة من العجين" لعدم كفاية الأدلة، وها هو حر طليق يدخل السجن ويخرج منه باستمرار بتهم سرقات صغيرة. ويشاء الله أن يتعرف ثائر إلى ابن ضيحتَي الجريمة بعد أعوام من وقوعها ويسمع تفاصيل القصة منه، مما أعطاه سبباً آخر ليعيد النظر في مخططاته المستقبلية والمهنية. لم تكن آمال راضية عن الخطوة التي اتخذها، لكنّ سماعها لأسبابه غيّر موقفها؛ فقد أدركت أنّه لم يعد لطباعه القديمة، وإنما نضج بحيث أصبح يعرف أنّ إثبات رجولته لا يعني فعل ما يرضي والده فحسب وإن كان على حساب حياته، بل أن يعرف ما يريده في الحياة وكيف يريد لحياته أن تكون، وأن يملك الجرأة الكافية لاتخاذ قراراته وتحمل مسؤوليتها بناءً على ذلك.

ظل الوضع متوتراً بين ثائر وأبيه - رغم محاولات ثائر المتواصلة لاسترضائه- إلى أن جاء ذلك اليوم الذي رنّ فيه الهاتف في الخامسة فجراً. الجميع يعرف ماذا يعني أن يرن الهاتف فجراً. هرعت أم ثائر من سريرها، رفعت السماعة، كان الجميع قد نهضوا ووقفوا على بعد خطوات منها ينظرون إليها منتظرين أن تقول أي شيء، إلا أنّها لم تقل شيئاً، ظلت تسمع المتحدث عبر الهاتف في صمت، ثم أغلقت سماعة الهاتف وكادت تفقد توازنها كأنّها فقدت الشعور بالزمان والمكان. ركضوا نحوها، أمسك بها ثائر من ذراعها وأجلسها على الأريكة

بينما تسمرت آمال في مكانها تذرف الدموع بصمت، فقد عرفت بلا شك أنّ ذلك كان خبر جدها أبي عمر.

بعد عودتهم من الجنازة تغير الوضع بين ثائر وأبيه، وكأن الأب رأى من ابنه شيئاً أعاد إليه الثقة به. لم يفتح الموضوع ولم يتحدث أحد عن ذلك، عادت الأمور طبيعية فحسب، لكنّ آمال ستعرف السبب لاحقاً؛ حين يحدثها خالها عمر عن الجنازة ويصف لها كيف حمل ثائر جثمان جده وكان أول من تبرع بالنزول إلى داخل القبر لتسلم الجثمان ووضعه في مكانه، وظيفة يتجنبها كثير من الرجال عادة لما لها من رهبة... لكنّ ثائراً قام بها كأنّها أمر عادي، لم يذرف دمعة واحدة، بدا جدياً كما لم يبدُ في حياته، وحين انتهى من وضع الجثمان في اللحد خرج ونفض التراب عن ملابسه كأنّ شيئاً لم يحدث، ثم ذهب ووقف إلى جانب أبيه وخاله لتلقي العزاء من الرجال، دون أن ينطق بكلمة. حين غادر الجميع ظل الثلاثة واقفين بجانب القبر، لم يجد عمر حرجاً في البكاء، أما أبو ثائر فلف ذراعه حول كتفَي ابنه ولاذ كلاهما بالصمت، وكأن أي كلمة يتفوهان بها ستكون تعدياً على حرمة اللحظة.

تتذكر آمال كل ذلك وهي تكوي الملابس قطعة تلو الأخرى لتسلو عن توترها الذي تلاشى لحظياً، ولا يقطع تسلسل أفكارها سوى مجيء ثائر حاملاً بضع قمصان يضعها على طاولة الكي مستخدماً حجة جديدة هذه المرة:

"رح تشتاقي لكوي قمصاني، اعتبريها توديعة"

قبلَ السَّفر

تبتسم آمال، وتبتسم أكثر لأن ثائراً لا يدرك أنّها ستشتاق إلى ذلك فعلاً. تتساءل في نفسها كم من الوقت ستقضي في كي الملابس وهي وحيدة في منزلها البعيد، وإلى متى سيجدي ذلك نفعاً، وإلى متى سيظل ذلك ملاذها المزيف قبل أن تتعلم كيف تواجه مخاوفها، أو تجبرها الغربة على ذلك.

الفصل العاشر

مفرح ، مبكٍ

عرفت آمال أنّها لن تنجح في الهروب طويلاً وأنّ عليها في مرحلة ما التعامل مع مخاوفها بشكل آخر؛ فكيّ الملابس طوال النهار قد يكون وسيلة إلهاء مؤقتة وناجحة، إلا أنّه لن يغير شيئاً، فحين تضع رأسها على وسادتها ليلاً تعود الحيرة والمخاوف من جديد، تهاجمها ككتيبة قصف عشوائي، تعيث في متاهات ذهنها كجيش من المتمردين فيهرب سلطان النوم رافعاً الراية البيضاء ليحتل الأرق مكانه، فتنهض مستسلمة لهذا السلطان الجائر.

في تلك الليلة بالذات كان بها من التعب ما جعلها تظن أنّها ما إن تغمض عينيها حتى تروح في نوم عميق، ولكن ما أن بدأ النوم يغالبها وراح الواقع يختلط بالحلم حتى رأت نفسها تقفز من قطار سريع، لتستيقظ مذعورة قبل أن تشعر بوقع اصطدامها بالأرض. وبكل ما في الأحلام من لامنطقية وفي اللحظة التي فتحت فيها عينيها سمعت صوت أمها يتردد داخل رأسها بالسؤال الاستنكاري ذاته: "ليش بدك تسافري؟"

راح قلبها يخفق بشدة، لم تستطع العودة للنوم. تذكرت أنّ أمها سألتها هذا السؤال حين أفصحت عن نيتها في السفر لكنّها لم تجبها عليه إلى الآن، فهي تعرف أنّها سألته وهي تضمر الجواب مسبقاً، وهو أنّه لا سبب يدفع

آمال للسفر ولا شيء لها خارج هذه البلاد. قد تكون أسباب آمال أكثر سرية من أن تبوح بها لأمها أو حتى لنفسها، لكن لا بد من وجود طريقة أخرى للرد على السؤال. لماذا تريد أن تسافر؟ ولماذا يجب أن تبقى؟ لعلّ أفضل طريقة هي وضع جدول منطقي بالسلبيات والإيجابيات بدءاً من أتفه الأسباب، لا للرد على سؤال أمّها فحسب، بل للرد على سؤال أكثر إلحاحاً داخل رأسها.

تناولت قلماً وورقة، قررت ألا تكون موضوعية جداً فلم تقسم الصفحة إلى نصفين، بل كتبت عنواناً واحداً على رأس الصفحة: "إيجابيات السفر". بدأت تفكر في أشياء ستتخلص منها وأشياء لن تضطر إلى فعلها. فكرت في الالتزامات الاجتماعية، ليس اللقاءات العائلية التي تستمتع بها عادة بل المناسبات والأعراس التي لن تضطر إلى حضورها. هذا سبب جيد، همت بأن تكتب في السطر الأول: "التحرر من المجاملات الاجتماعية"، لكنّها توقفت لسبب ما. جاءتها صورة جدتها الشركسية من بعيد، شعرت بأنها تسمع صوتها وهي تناديها وتمسك بيدها وتمشي بها لتدخلا قاعة يقف فيها عروسان تتحلق حولهما مجموعة من الناس، وفجأة يدخل شاب وفتاة وسط الدائرة ويقومان بحركات رشيقة بخفة من ينزلق على الجليد، مع موسيقى لم تسمع مثلها من قبل. تصفق جدتها بسعادة ثم تلتفت إلى حفيدتها الصغيرة وتسألها إن كانت الرقصة تعجبها، فتهز الطفلة رأسها رغم استغرابها من وصف ما تشاهده بأنه رقص مقارنة بالرقص الذي تعرفه. تنتبه الجدة لذلك فتشرح لها أنّ الرقص الشركسي قائم على

فكرة الاحترام، إذ يرقص الشاب والفتاة بحركات متقنة ورشيقة من دون أن يتلامس جسداهما طوال الرقصة.

تتذكر آمال ذلك العرس الشركسي الذي اصطحبتها جدتها إليه بحنين غريب، تشعر بالذنب لسعادتها بالخلاص من تلك المناسبات الاجتماعية، ثم يختفي الشعور بالذنب ليحلّ مكانه شعور بالارتياح حين تتذكر الأعراس التي كانت تُجبر على الذهاب إليها. كانت تزعجها، فجميعها نسخ مكررة وروتينية للشيء نفسه: يدخل العروسان، يتبادلان الخواتم، يرقصان، يرقص الناس، يقطعان الكعكة في طقوس مبتذلة، تتبع ذلك في معظم الأحيان رقصة رومنسية أكثر ابتذالاً، يأكل الناس، يرقصون، يرقصون أكثر، يغادرون. كانت تتجنب حضور الأعراس قدر المستطاع خاصة أنّها في معظم الأحيان لا تعرف أياً من العروسين بل تكون مدعوة ضمن عائلتها كونهم من الأقارب أو المعارف، وكان لا بد لها من الذهاب إذ إنّ عدم ذهابها سيفسر على أنّه غيرة أو حسد، خاصة كونها لم تتزوج بعد وقد قاربت الثلاثين. ربما كان هذا سبباً حقيقياً لعدم رغبتها في الذهاب؛ تجنباً لنظرات الشفقة أحياناً والاتهام أحياناً أخرى. عروبة كانت تكره الأعراس أيضاً ولم تكن تذهب في معظم الأحيان. تقنع آمال نفسها بأن عروبة يمكنها التغيب لأن الألسن لن تطالها كما تطال الأخت الكبيرة، إلا أنّها في قرارة نفسها تعرف أنّ السبب الحقيقي هو أنّ عروبة لا تهتم أصلاً، المسألة ليست مسألة عمر.

وإن اختارت آمال عدم الاكتراث بكلام الناس، كانت تجد نفسها في أحيان كثيرة مجبرة على الذهاب تحت ضغط عمتها التي تحاول جرها إلى جميع تلك المناسبات لاعتقادها بأنها أفضل فرصة لإيجاد عريس مناسب، أو أمّ تبحث عن عروس لابنها. كانت آمال تفهم ما تريده عمتها فتحاول بشتى الوسائل إيجاد عذر لعدم مرافقتها، لكنّ عمتها لم تكن تقبل بأي عذر، فما يكون من آمال في تلك الحالة إلا أن ترتدي ملابس أقرب إلى العادية مما كان يثير جنون عمتها فتصيح بها "ولك البسي إشي يخليكي تبيني" فترد آمال بصورة قاطعة: "عمتي أنا مش رايحة أستعرض حالي، يا بروح هيك يا ما بروح..."

تتذكر آمال الأعراس التي كانت تحضرها مع عمتها وتضحك؛ كانت مسلية رغم كل شيء، وكانت تضحك كثيراً حين تعود إلى البيت وتحكي لأختها وأمها ما حدث في العرس، فهل تكره هذه المناسبات حقاً؟ اعترفت لنفسها على مضض بأنها كانت تحب روتينية الأعراس في بعض الأحيان، فتشابه المراسم مع اختلاف الوجوه يجعل التمييز بين الفرحة الحقيقية والمزيفة أسهل على العين المجردة. يعجبها منظر العروسين وهما يدخلان القاعة، وتبحث في تلك اللحظة بالتحديد عن أمّ العروس. تتخيل شعورها، تتساءل أي نوع من المشاعر يدفع بدموعها للانهمار بهذا الشكل... لقد سألت أكثر من امرأة عن ذلك وكانت دائماً تسمع إجابة واحدة: "لا أعرف".

عرس واحد لم تحضره، ولم تكن مدعوة إليه أصلاً، إلا أنه بقي عالقاً في ذاكرتها أكثر من أي عرس

آخر. لم يكن عرس أحدٍ من أقربائها أو معارفها، وربما لو تمّ في ظروف مختلفة لكان عرساً عادياً كأي عرس ولم تكن ستسمع به أو تعرف عنه شيئاً، فهي كغيرها لم تسمع به إلا من خلال خبر عاجل ظهر على الشاشة عن تفجير ثلاثة فنادق في عمّان. يومها وقفت مذهولة لا تصدق ما تسمعه... كيف يحدث هذا في عمّان؟ بدأت الاتصالات تنهال عليهم من كل جهة وبدأت أمها تجري اتصالاتها مع كل من تعرف. لم يكن أحد يعرف شيئاً، أي شخص تعرفه قد يكون هناك في تلك اللحظة. ساعات من الترقب والقلق والحيرة لم تعرفها المدينة من قبل، وفي الصباح اتضح كل شيء. في واحد من تلك الفنادق الثلاثة كان هناك حفل زفاف يعجّ بالنساء والأطفال والعائلات، وشخصان يستعدان لبدء حياة جديدة، لعلهما كانا كأي عروسين متخوفين من حدوث مشاكل بسيطة خلال الحفل، مشاكل تتعلق بوجود أغانٍ غير التي تلك طلبا وجودها أو ألا يكون الطعام جيداً، أو أن يبدأ طفل بالبكاء حال دخول العروسين إلى القاعة؛ أما أن يكون يوم زفافهما هو اليوم الذي يفجعان فيه بأقرب الناس إليهما فلا بد أنّ ذلك لم يكن ضمن أسوأ توقعاتهما. تتذكر آمال وجه المذيعة في أحد البرامج الصباحية، متجهماً وأقرب إلى الشحوب، تبدأ بالكلام عن إحدى قريباتها التي كانت في حفل الزفاف ذاك وقُتلت في الانفجار، تكاد الدموع تغلبها فتشيح بوجهها عن الكاميرا وتعض على شفتيها مقاومة انهمارها، ثم تنظر إلى الأمام مجدداً وتقول: "كانت ذاهبة لحضور زفاف صديقتها، هذا كل ما فعلته"

أيـام عديـدة قضـتها عمّـان فـي السـواد، ومـا كـان يفتـرض أن يكـون فرحـة لعـائلتين تحـول إلـى عـزاء لبلـد كامـل. تَوحّـد النـاس كمـا لـم يفعلـوا مـن قبـل، بـدت كـل خلافـاتهم واختلافـاتهم غيـر ذات معنـى، لـم يعد أي شـيء مهماّ، أصبحوا جميعاً على قلب واحد؛ كلهم يقدمون العزاء وكلهم يتقبلونه.

الأمـور تتـرابط بشكل غريـب، وأفكارنـا تتنقل بنـا من عالم لآخر بسلاسة تصل إلى حد الإربـاك في بعض الأحيان، فلم تعد آمـال تفكر في الأعراس الآن بل تحـول تفكيرهـا إلـى النقيض تمامـاً. شـعرت بضـيق فـي صـدرها حين خطرت ببالها كلمة العزاء، تخيلت أشخاصـاً يـدخلون ويخرجـون، نسـاء يرتـدين ملابـس غامقـة، تـداخلت صـور مختلفة ومتشابهة في الوقت ذاته من حقب زمنيـة مختلفـة، فهـي تتـذكر عزائَـي جدَيها أبـي غـازي وأم غـازي بشـكل مبهم، لكن ثمة تفاصيل معينة مطبوعة في ذاكرتهـا. تتـذكر جيداً أنّهـا لـم تـذرف دمعـة فـي عـزاء جدها، ربمـا لأنهـا لـم تكن تدرك معنى الموت بعد، فتلك كانت أول مرة تفقد فيهـا شخصـاً قريبـاً إليها، وأول مواجهة مباشـرة لهـا مـع المـوت، أو بالأحرى مع الفجيعـة. لم تستوعب أنّهـا لـن تـرى جـدها في هذا العالم من جديد، كانت تشعر بأنّها ستدخل بيتـه فـي اليـوم التـالي فتجـده جالسـاً علـى أريكتـه يشـاهد الأخبـار كالعـادة، لدرجـة أنّهـا صـارت خـلال الأسـابيع التاليـة إذا دخلت البيت تتفاجأ في كل مرة بعدم وجوده هنـاك، فتتـذكر أنّه قد رحل، وكأنّها تدرك ذلك للمرة الأولـى. تتذكر جيداً ما كان بعد العزاء، حين غـادر الجميع وهدأت الأصـوات وأطفئت الأنوار ونام كل من فـي البيت. لـم تستطع النـوم،

فكلما حاولت إغماض عينيها هاجمتها صورة جدها تحت التراب الرطب. كيف استطاعوا وضعه تحت التراب وتركه وحده هناك؟ كيف تغيرت قيمة الإنسان في لحظة بهذا الشكل فأصبحت خير وسيلة لإكرامه هي دفنه؟ حين هرعت خائفة إلى أمها بعد منتصف الليل حاولت تهدئتها وقالت لها إنّ ما تحت التراب جسد لا حياة فيه، أما جدها فقد تحرر من قيود ذلك الجسد حين حلقت روحه صاعدة إلى السماء. "بإذن الله هو هلأ في مكان أحلى بكتير" تقول لها أمها محاولة تقريب الفكرة "بتطلع علينا كيف زعلانين وبنبكي وبقول شوف هالهبل، على شو بيبكوا؟ ابكوا على حالكم!"

كلام أمها بدا منطقياً ومريحاً، وستتذكره بعد سنوات حين يموت جدها أبو عمر، والد أمها. بكته الأم كثيراً، لم تجفّ دمعتها لأيام حتى ظنت آمال أنّها تناقض نفسها وكادت تسألها: "إن كنت تؤمنين بما قلته لي قبل أعوام فما الداعي لكل هذا البكاء؟" إلا أنّ الإجابة سبقت السؤال، ففي اليوم الثالث للعزاء وبينما كانت النساء جالسات يسبّحن ويقرأن القرآن أو تتبادل بعضهنّ الأحاديث بصوت خفيض، رفعت أمّ آمال رأسها فجأة وقالت دون أن توجه الكلام إلى أحد، وكأنها تحدث نفسها بصوت مسموع: "مش متخيلة إنّو صارلي تلات أيام مش شايفته ولا حاكية معاه". كان ذلك كافياً للرد على تساؤلات آمال، وعرفت أنّ أمها لا تناقض نفسها، فهي وإن اقتنع عقلها بأن والدها بحال أفضل الآن، بعيداً عن مرضه وأوجاعه التي أنهكته في أيامه الأخيرة، إلا أنّ كل قناعات الدنيا ومنطقها العقلي لن تردع قلبها عن الاشتياق إليه. دفع

ذلك آمال إلى التفكير في طبيعة الإنسان الأنانية، فهل نحزن على الميت حقاً أم على فراقه لأن فراقه يعني اشتياقنا إليه وحاجتنا إلى رؤيته؟ أم هل نحزن لأن ذلك يذكرنا بمصيرنا الذي نحن سائرون إليه أيضاً؟

لعل هذه الأنانية تتجلى واضحة حين يكون الميت شخصاً بعيداً أو لا نعرفه جيداً، فدور العزاء ليست مجرد وسيلة لمواساة أهل الميت، بل إنّ بعض الناس وجدوا استخدامات أخرى لهذه التجمعات. تتذكر آمال إحدى صديقاتها التي قالت لها مرة إنّها تحب ارتياد دور العزاء لأنها تجد فيها فرصة للبكاء دون أن يسألها أحد عن السبب، فهم يظنونها تبكي على الميت ولا يدركون أنّها في الحقيقة تمتلك أسباباً أخرى، كما هو حال الجميع. تسخر منها آمال وتقول لها إنّه يمكنها بكل بساطة أن تغلق باب غرفتها وتبكي كما يحلو لها، فترد عليها بأن البكاء بين الناس له طعم آخر، خاصة وهم يشاركونك هذا البكاء وإن اختلفت الأسباب. أما ما كان يثير جنونها فهو تحويل دور العزاء إلى مناسبات اجتماعية للغيبة والنميمة وتمضية الوقت، والأكثر من ذلك أنّ بعض النساء يجدن في دور العزاء مناسبة للتعارف والبحث عن عروس مناسبة لأبنائهنّ، مما يفسر مجيء بعض الفتيات إلى دور العزاء بأبهى حلة – وإن كانت الملابس داكنة بعض الشيء - لعلها تجد صيداً ثميناً هناك.

تنفض آمال تلك الأفكار من رأسها. ما الذي جعلها تفكر في الموت الآن؟ ليس هذا ما تحتاج إليه. تحاول استجماع أفكارها من جديد لتجد شيئاً إيجابياً آخر تضيفه

إلـى القائمـة، إلا أنّهـا حـين تنظـر إلـى الورقـة تجـد أنّهـا لـم تكتـب شيئاً، بـل تـرى مجموعـة مـن الأشـكال والرسـومات التـي لا تـدري متـى وكيـف رسـمتها. لا تسـتغرب الأمـر؛ فكثيـراً مـا تفعـل ذلـك حـين تكـون شـاردة الـذهن، مـا أثـار دهشتها حقاً هو تداخل الحبر الذي ُرسمت به تلك الأشكال وجريانـه علـى الـورق بفعـل دمـوعٍ لا تـدري كيـف ومتـى غافلتها وانسلت بصمت لتمحو بعضً ما كتبتـه وتقول مـا عجزت هي عن قوله، دون أن تكتب حرفاً.

الفصل الحادي عشر

عـــــــروبة

"بتعرفي إنّه خسارة" خرجت الكلمة من عروبة كأنها كانت تقف على طرف لسانها منذ فترة وتتحيّن الوقت المناسب للفظها، دون مناسبة أو مقدمات.

رفعت آمال نظرها عن الأوراق الرسمية التي كانت مشغولة بها، نظرت إليها من فوق نظارة القراءة كسيدة عجوز تحيك الصوف، انتظرت أن تكمل الجملة لعلها تصبح ذات معنى لكنّها لم تفعل، فكان على آمال توجيه السؤال الواضح: "شو اللي خسارة؟"

"إنك بدك تسافري وتتركينا"

ابتسمت آمال وعادت إلى تفحص الأوراق. "تعالي معي"، قالت بشكل أقرب إلى السخرية منه إلى الجد.

ضحكت عروبة مؤكدة السخرية في العبارة. "أنا أروح على دبي؟ لا ما بنفع، هاي بلد فش فيها مشاكل شو بدي أروح أعمل. أنا قصدي خسارة إنّك بدك تتركي البلد. بحزن لما أشوف الناس المناح عم بطلعوا برّا عشان ضغوط اجتماعية"

كلمة "ضغوط اجتماعية" استرعت انتباه آمال، جاءتها كصفعة. وضعت الأوراق جانباً وخلعت النظارة وقالت بجدية أقرب إلى الاستجواب: "شو قصدك بالضغوط الاجتماعية؟"

"آمال ما رح تقدري تضحكي علي" قالتها عروبة كمن يوجه اتهاماً. "أنا بعرف إنّه إنت مش فارقة معك وين رايحة ولا شو الشغل اللي رايحة عليه. أصلاً إنت ما حكيتي ولا كلمة عن الشغل، يعني الموضوع مش موضوع طموح. صحيح شغلك هون كان زفت وما كنتِ مبسوطة وما كان في تقدير، بس أنا عارفة إنّه السبب الحقيقي هو إنّك هاربة من ضغط عمتك وإمك والمجتمع كله"

سكتت آمال، لم تستطع الاعتراض.

"شايفة؟" تابعت عروبة بحماس محامي ادعاء هدم دفاع متهم على منصة الشهادة. "أنا عارفة! بس يا آمال إنت أكبر من هيك، إنت فهمانة ومخك نضيف وممكن تعملي أشياء كتير بحياتك"

"وشو شايفيتني عم بحاول أعمل؟" ردت آمال بعصبية مفاجئة.

"إنت عم تهربي" واجهتها عروبة مجدداً. "بس إنت عم تهربي لنفس الإشي اللي إنت هاربة منه"

"بلشنا فلسفة!" قالت آمال بامتعاض

"مش فلسفة، أنا بعرف إنك كنت بتقدري تمشّي حياتك، تضلي بشغلك اللي ما إلو هدف، وتتجوزي واحد من عرسان عمتك وتمشي حياتك معاه وعادي، تعيشي زي ما هالناس عايشة. بس إنت ما قدرتِ تعملي بحالك هيك، وما قدرت تتحملي الضغط الاجتماعي فقررت تروحي على مكان تعيشي فيه نفس الحياة العادية بس بدون ضغوطات"

حدقت آمال فيها وكأنها تستجمع كلمات تدافع بها عن نفسها، إلا أنّ جوابها جاء مخيّباً لكلتيهما. "مش أحسن ما أضل قاعدة هون زي قُفة الهمّ؟"

"ومين حكالك إنّك قُفة همّ؟" صرخت عروبة بغضب جعلها تبدو أكبر من عمرها بسنوات، كأُمّ أو أخت كبيرة خائفة على مصلحة ابنة مراهقة. "إنت عندك طاقة كبيرة وممكن تعملي كتير أشياء، البلد بدها ناس متلك..."

"شوفي عروبة، كلام الأحزاب تبعك هاد سيبيني منه، طاقة كبيرة قال!" قالت آمال متهربة من النقاش. "والبلد مش محتاجة ناس متلي، البلد محتاجة ناس متلك إنتِ"

"يا سلام!" قالت عروبة محتجة. "هي بلدي لحالي؟ طبيعي يكون عنا فساد بالهبل إذا كل الناس بتحكي زيك، أنا ومن بعدي الطوفان..."

"يا ستي أنا وحدة أنانية ولا مبالية، إنت كافحي الفساد عشان أنا وأمثالي نرجع نخرب البلد من أول وجديد

ونقعد على تلها كمان! وهيك بضل شغلك ماشي" قالت آمال محاولة إخماد النبرة الجدية التي اتخذها النقاش.

ضربت عروبة كفيها ببعضهما، "بدهاش مين يخربها، ما هي خربانة خربانة..."

"عروبة" قالت آمال بنبرة قلقة هذه المرة. "إنت بدكيش تبطلي هالحكي هاد؟ ناوية تضيعي مستقبلك؟ مفكرة حدا سامعك ولا معبرك أصلاً؟"

"طبعاً بدهم يسمعوا!" قالت عروبة بحماس ثوري، ثم نهضت وأخرجت ورقة من جيبها وفردتها أمام آمال. "هادا مش حكي بس، هادا عمل منظم، شوفي".

أمسكت آمال بالورقة، كان منشوراً يحتوي على صور ومقالة صغيرة، نظرت إليه باقتضاب ثم نظرت بتساؤل إلى عروبة التي قالت بنفس الحماس "اقرئيها، أنا كتبتها..."

تناولت آمال نظارة القراءة من جديد وراحت تقرأ:

" عزيزي المواطن الأردني... أتعرف من أنت؟

أنت لست تحفة ولا مزهرية، ولا مجرد رمز من رموز الوطنية، بل أنت يا عزيزي ثروة قومية، فتذكر معي العبارة الجلية: إنساننا أهم ما نملك من موارد محلية.

قد تجد الأمر عصياً على التصديق، فطوال عمرك لم تسمع سوى التصفيق، لكن فكر في الأمر ملياً، فهو صحيح حرفياً، إذ إنّك يا عزيزي أهم ما نملك، ليس لسواد عيونك، وإنما لقيمة دخلك؛ فكيف نسدّ الديون والمصائب، إن لم يكن من الضرائب؟

ها أنت ذا عرفت الحقيقة، فتوقف وفكر دقيقة، فهل لمست في حياتك العصرية، آثار الاقتطاعات القصرية؟ وإنك إن طالبت بأدوية مجانية، قالوا هناك عجز في الميزانية، إذ نُهبت مليارات سخية، فمن يدفع الفرقية؟ أحسنت! البركة في الرعية! لكن لا تقلق، فنحن نحقق في القضية، وإلى ذلك الحين تحملنا، فكما في كل قصة جلاد، فيها أيضاً ضحية.

وبعيداً عن الأعمال المفضوحة، تأمل الأسواق المفتوحة، إذ تُرفع الأسعار، لتعويض ضرائب التجار، وهذا نهج الضمير العقيم، فمن يحمي المستهلك الغشيم؟

وأنت ها هنا إذ عرفت قيمتك، تنبه جيداً واشحن عزيمتك، واعرف ما لك وما عليك، وافتح عينيك وأذنيك، فإن لم تكن تدري بما يجري حولك، اقرأ ما يلي وقل لنا رأيك..."

في نهاية الصفحة كان هناك جدول يحتوي على أرقاما كبيرة لكن آمال لم تنظر إليه، بل التفتت إلى عروبة بصدمة واضحة وهمّت بأن تصرخ بها إلا أنّها خافت أن يسمعها أحد فحولت نبرتها إلى تعنيف أقرب إلى الهمس: "ولك إنت مجنونة؟ وين وزعتوا هادا المنشور؟"

"في اعتصام سلمي قدام ضريبة الدخل" قالت عروبة بنفس الاندفاع. "تجمعنا هناك وعزفنا موسيقى ووزعنا المنشورات وروّحنا"

ضربت آمال بيدها على رأسها. "مجنونة! بدك تروحي وترَوحي العيلة كلها بداهية؟"

"ليش حبيبتي؟" تحول اندفاع عروبة إلى تجهم الآن "أنا ما عملت إشي غلط، عبرت عن رأيي، وهاي مجرد حقائق"

بقيت آمال تحدق فيها بدهشة، لا تعرف ماذا تقول، فاكتفت عروبة بسحب الورقة من يدها والخروج من الغرفة.

راحت آمال تمشي في الغرفة جيئة وذهاباً. لم يكن ذلك قلقاً على أختها المندفعة، بل غيرة مضمرة من ذلك الاندفاع؛ فلطالما كان معروفاً لدى الجميع أنّ عروبة هي المندفعة المتهورة منذ صغرها، بينما آمال هي الفتاة الهادئة التي لا تخالف لأحد رأياً. آمال تعرف أنّها لا تختلف عن عروبة كثيراً في الأفكار، الفرق الوحيد هو أنّ عروبة تملك الجرأة للتعبير عما تفكر فيه، مما جعلها تبدو ذات رسالة وهدف واضح في حياتها، بعكس آمال التي قاربت الثلاثين ولم تجد قضية تشغلها بعد. يا ترى ما الذي كان سيحدث لو أنّها كانت مثل عروبة؟

لم تكن هذه أول مرة تتمنى فيها أن تكون مثل عروبة. راحت تستذكر مواقف كثيرة شعرت فيها بأنها

تتحجم وتصغر أمام أختها التي تصغرها بثمانية أعوام والتي كانت ذات يوم تحملها بين ذراعيها. لم تتخيل يوماً أنّ هذه الطفلة ستكبر لتصبح الناقوس الذي يذكرها بأن في العالم قضايا أكبر منها، وهموماً أكبر من همومها.

لم تكن عروبة كبقية الفتيات في سنها، فرغم أنّها كانت أصغر فرد في العائلة إلا أنّ ذلك لم يحولها إلى تلك الطفلة المدللة التي اعتادت الحصول على كل ما تريد، بل أنّها منذ صغرها أظهرت قوة وتفرداً في الشخصية، ربما يعود ذلك إلى صراع البقاء الدائم الذي كانت تخوضه مع أختها وأخيها الكبيرين لمجاراتهما ومنعهما من استغلالها بوصفها الحلقة الأضعف. لم تكن تستنجد بأحد حين تواجه أي مشكلة، ففي المدرسة الابتدائية حين أرادت إحدى المعلمات معاقبتها بغير وجه حق خرجت عروبة من الصف وركلت الباب بقدمها، وتوجهت مباشرة إلى الإدارة وقدمت شكوى بحق المعلمة التي اعتذرت لها في النهاية. أما سنوات مراهقتها فقد قضتها في القراءة ومتابعة البرامج الوثائقية والسياسية. والدها يقول إنّها ورثت ذلك عن جدها أبي غازي الذي اختار لها اسمها قبل وفاته بأشهر قليلة. قد يكون للوراثة دور في ذلك، لكنّ عروبة كانت شخصية مستقلة بوضوح، تؤثر فيمن حولها أكثر مما يؤثرون فيها.

ولعل أكثر موقف نبّه آمال إلى هذه الحقيقة كان قبل أقل من عامين، تحديداً في أواخر أيار من عام 2010. تتذكر التاريخ جيداً لأن العالم كله يتذكره. في البداية لم يكن الأمر يحظى بضجة إعلامية، بل كان بالكاد يُذكر في

نشرات الأخبار، إلا أنّ عروبة كانت تتابعه عن كثب عبر مواقع الأخبار والتواصل الاجتماعي على الإنترنت، لحظة بلحظة. كان والداها نائمين، وآمال وثائر يشاهدان مسرحية على إحدى القنوات، بينما كانت عروبة منكبّة فوق جهاز الكمبيوتر بتوتر واضح، وتقوم بين الحين والآخر إلى غرفة الجلوس لتطلب من أخويها تفقّد القنوات الإخبارية لعلها تذكر شيئاً عن الموضوع. كان ثائر يغضب لأنه يريد متابعة المسرحية، لكنّه ينصاع لها بعد مشادة كلامية قصيرة، وبعد جولة على بضع قنوات إخبارية تعود خائبة إلى الكمبيوتر وهي تردد بغضب: "ما حدا جايب سيرة... ولا كإنه في إشي!" دون أن ترد على استفسارات أخويها حول ما يقلقها.

عند الفجر استيقظت آمال على صوت التلفاز. كان المذيع يقول شيئاً عن سفينة تركية تحمل ناشطين أجانب وعرب وتبحر نحو غزة حاملة أدوية ومواد غذائية، متحدية الحصار المفروض على المدينة منذ سنوات، ثم تعرضت لهجوم من القوات الإسرائيلية وقُتل عدد من الناشطين الذي كانوا على متنها. نهضت آمال من السرير لترى عروبة متسمرة أمام التلفاز. كان والداها أيضاً يشاهدان الأخبار ويكيلان الشتائم للكيان الصهيوني وجيشه. عروبة كانت صامتة.

عادت آمال إلى السرير، لم تحتمل مشاهدة المزيد بعد أن عرفت سر توتر عروبة الليلة الماضية. شعرت برغبة في أن تدفن نفسها تحت التراب وليس تحت الغطاء فحسب. بعد قليل دخلت عروبة الغرفة، جلست على

سريرها بصمت، بدت بحالة لم ترها آمال فيها قطّ، فرغم عتمة الغرفة كان الانكسار واضحاً في جلستها وانحناءة ظهرها وشعرها الذي غطى وجهها. جلست على هذا الحال لدقائق، ساهمة تحدق في الفراغ دون أن تقول شيئاً، وفجأة ومن دون سابق إنذار... انفجرت بالبكاء.

بعد تلك الحادثة، بدت عروبة أكثر غضباً وأكثر حماساً واندفاعاً من ذي قبل، وراح ذلك يزداد شيئاً فشيئاً نهاية ذلك العام مع تدفق الأخبار من تونس ثم من مصر، وبدء فصل جديد في التاريخ سيقلب المنطقة العربية رأساً على عقب، وعادت كلمة "ثورة" لترتبط بالعرب بعد أعوام من الجفاء.

كانت عروبة تتابع الأخبار عن كثب، وكانت على تواصل مع أصدقاء في مصر وأقطار عربية أخرى. كانت قلقة طوال الوقت ولم يعد لها عمل سوى متابعة الأخبار والقراءة حول تاريخ البلاد العربية محاولةً ربط الماضي بالحاضر ورؤية الأحداث بعمق أكثر مما تبدو عليه. لم يمثل ذلك مشكلة لأحد حتى وصلت أصداء الإرادة الشعبية إلى الأردن، وبدأ صوت الناس يعلو مطالبين بالإصلاح السياسي. بدأ أبواها يحذرانها من الانخراط في أي مظاهرات أو اعتصامات في الجامعة أو خارجها، إلا أنّ ذلك لم يجدِ نفعاً، فقد كانت عروبة تختلق الأعذار لتأخرها عن البيت ولخروجها كل جمعة وقت الصلاة. كانت دائماً تحضّر لشيء ما، تجري اتصالات كثيرة. أحياناً كانت تعود إلى البيت منهكة ويبدو عليها الإحباط فتأوي إلى فراشها دون أن تكلم أحداً، وأحياناً أخرى كانت تعود وهي

تضحك وتروي النكات. "قال احنا بنتظاهر وهم بقدمولنا عصير... مش عارفة هي ديموقراطية ولا مبسوطين علينا عشان مطالبنا ناكتة وقصصنا طرمة"

كانت آمال متأكدة أنّها هي وعائلتها لا يعرفون نصف ما تفعله عروبة خارج المنزل، لكن لسبب ما ورغم أنّها الابنة الأصغر للعائلة لم يكن أحد يشعر بأن هناك ما يدعو للقلق عليها. ربما كان السبب ثقتها الشديدة بنفسها وشخصيتها القوية وجرأتها التي لا تعرف التردد، ولأنهم كانوا يرونها دائماً الطفلة الصغيرة التي لا يمكن أن تغير شيئاً ولا أن تسترعي أي انتباه مهما فعلت، أو كما يقول ثائر، "بتفعفط عالفاضي". لعل الجميع كان يراها كذلك إلا شخصاً واحداً كان هو الأقرب إليها والوحيد يعاملها كفتاة ناضجة ويأخذ حماستها على محمل الجد، جدها أبو عمر. كان يجلس معها بالساعات يحدثها عن قصص يسأم الآخرون من سماعها، من قصص طفولته بين معان وعمّان، إلى قصص عائلته في نابلس وكيف غيروا اسم العائلة التركي ليتقبلهم العرب هناك حيث كانوا موظفين ذوي نفوذ في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى. كانت تجلس وتسمع باهتمام حقيقي، لم تكن تتظاهر بذلك فحسب لمساعدة عجوز متقاعد على تمضية وقته كما يفعل غيرها، بل كانت تستغل كل ما يمكنها تخصيصه من وقت للجلوس معه والتحدث إليه، فكان طبيعياً أن تكون هي أكثر من تأثر بغيابه، وأصبحت تحاول ملأ الفراغ الذي تركه في حياتها بقراءة كتبه التي كان يحتفظ بها في مكتبة صغيرة في منزله واستأذنت جدتها في أخذها، إضافة إلى أشياء دوّنتها سابقاً مما كان يحكيه لها أثناء حياته. لم تبح

عروبة لأحد بعمق الخسارة التي شعرت بها لفقدان جدها، إلا أنّ عائلتها ستسمع لاحقاً من بعض زملائها بما فعلته عروبة في الجامعة تكريماً ووفاءً لجدها الراحل.

كان ذلك بعد وفاته بأقل من أسبوع. تغيبت عروبة عن الجامعة خلال أيام العزاء، وحين عادت إلى الدوام كان مطلوباً منها في إحدى المحاضرات لمادة من متطلبات الجامعة أن تقف أمام الطلاب وتتحدث عن أي موضوع من اختيارها. قال لها زملاؤها إنّه بإمكانها أن تطلب التأجيل بسبب ظرفها الخاص، حيث لم يتوقع أحد أن تكون قد حضّرت شيئاً، فأجابتهم بأنّها تعرف عمّا ستتحدث.

وقفت على منصة الإلقاء بثقة، بدا واضحاً أنّها لا تحتاج إلى نصائح للتخلص من رهبة الجمهور، بل كانت أقرب إلى بث الرهبة في نفوسهم وهي تدير نظرها في القاعة وتنظر إلى وجوههم مباشرة قبل أن تبدأ الكلام. صمت الجميع بانتظار أن تبدأ الحديث، ولما تأكدت من وصول القاعة إلى المستوى المطلوب من الهدوء بدأت حديثها بنبرة هادئة وآسرة في الوقت ذاته، دون أدنى حاجة إلى التقاط ذلك النَفَس العميق الذي ينصحهم مدرّس المادة بأخذه قبل البدء بالكلام.

"أريد أن أحدثكم اليوم عن رجل عظيم" بدأت وسط هدوء تام، وزادت نبرة صوتها وعبارتها الافتتاحية من انتباههم لها. "خرجت عائلته من نابلس بعد الحرب العالمية الأولى وأقامت في معان قبيل تأسيس الإمارة، ووُلد هناك أوائل الثلاثينيات. بعد عدة أعوام انتقل مع

عائلته إلى عمّان واستقروا في جبل التاج حيث سيستقر هو أيضاً ويقضي معظم حياته حين تصبح له عائلة خاصة به. ما أن بلغ الثامنة عشرة من العمر التحق بالجيش، وحين سأله الضابط الإنجليزي: "دو يو سبيك إنجليش؟" أجابه بكل ثقة: بلطش تلطيش..."

ضحك الجميع في القاعة، ابتسمت عروبة ثم أكملت...

"شهد تعريب الجيش، حكى لي كيف فرحوا برحيل (أبو حنيك) بعد سنوات من خدمتهم تحت إمرته. شهد الأحداث التي مرت بها البلاد على مدى ما يقارب السبعين عاماً، فمنذ بدأ يعي العالم من حوله راح يراقب ويتابع وأحياناً يسجل ما يسمعه ويراه وما يتداوله الناس من حوله. سمعت كثيراً من تلك الأحداث والكثير لم يسعفني الوقت لسماعه، أو هذا ما أتوقعه، فقصصه كانت لا تنتهي، ولا أعرف متى كان يمكن أن ينفد مخزونه منها. لكنّي لا أريد الحديث عن ذلك، لا أريد الحديث عن الرجل الذي قضى سنوات في خدمة بلده، بل عن ذلك الإنسان كما كان بين عائلته، عائلته التي بدأت تتكون في اللحظة التي رأى فيها تلك الفتاة الشقراء أول مرة وهو في طريقه إلى دوامه اليومي بزيه العسكري. أصبح أمراً يومياً، هي في حوش المنزل كل صباح، وهو يمر من هناك. اتضح أنّها هي أيضاً من عائلة نابلسية، لكنّ ذلك لم يكن يشكل فرقاً بالنسبة إليه، حيث كان قد عقد العزم مسبقاً أياً كانت ومن أي عائلة، وتمت الخطبة بعد أسابيع قليلة. خلال الخطبة ذهبت هي في زيارة إلى نابلس بضعة أيام وحين

عادت تفاجأ بأنها قصت شعرها، شعرها الطويل الذي كان أول ما لفت انتباهه لها، فغضب وأقام الدنيا وأقعدها، لكنّه نسي الأمر بعد فترة إذ إنّ شعرها لم يعد هو ما يهمه فيها، وسيظل الأمر كذلك حتى بعد خمسين عاماً حين يجلس أمام أحفاده ويغني لها *"يا وردة الحب الصافي... تسلم إيدين اللي سقاكي"* ... كان يغني لأحفاده أيضاً، ويحتفل بقدومهم لزيارته، يعد لهم الشاي ويلعب معهم الورق. كان يفعل كل شيء بنفسه لأنه كما كان يقول "يريد أن يموت واقفاً". لكنّ أمنيته لم تتحقق، فحين مات كان السرطان قد أنهك جسده فأنهى أيامه على كرسي متحرك... إلا أنّه بشكل ما مات واقفاً فعلاً. لقد مات واقفاً حين كان كل أبنائه وأحفاده حوله، يتناوبون على خدمته لا من باب الالتزام بل لقضاء أكبر وقت ممكن معه. لقد مات واقفاً بكل من كانوا يتوافدون لزيارته منذ بداية مرضه، يجالسونه قليلاً ويتذكرون بعض القصص القديمة، ثم يخرجون من عنده والدموع قد ملأت عيونهم، يحاولون إخفاءها عنه، وحين كانت الدموع تغلبهم أمامه فيفشلون في إخفائها كان هو يتجاهل الأمر بنفسه، فإن رأى أحداً تبدو عليه آثار البكاء يقول له إنّ عليه العودة إلى بيته والراحة لأن المرض واضح عليه. لقد مات واقفاً بما تركه من إرث: مكتبته المليئة بالكتب العربية والأجنبية، مصحفه الذي كان يقرأ فيه كل ليلة، يحاول أن يحفظ منه ما يستطيع ويعطيه لزوجته كي تختبره وهو يتلو عليها ما حفظه، ألبومات من الصور، أبيات من الشعر، منحوتاته الخشبية التي كان يتسلى بها خلال سنوات تقاعده من العمل، لكن الأهم من ذلك هو الذكريات التي تركها محفورة في ذاكرة أبنائه وأحفاده، وكل من عرفوه"

صمتت عروبة لبرهة مستجمعة أنفاسها وقوتها قبل قول الجملة الأخيرة،

" ذلك الرجل هو جدي أبو عمر، وقد تُوفي الأسبوع الماضي"

خيّم الوجوم على القاعة، لمعت في عيون البعض دمعة أو دمعتان، صمتوا كأنهم لا يعرفون ماذا يقولون، حتى وقف أستاذ المادة وبدأ يصفق لها، وانضم إليه باقي الطلاب على الفور.

تتفكر آمال في تلك الحادثة وغيرها وتشعر بالخجل. يا ترى لو كانت عروبة مكانها هل كانت ستهرب مثلها؟ لا، لا يمكن أن تكون عروبة مكانها، ذلك احتمال بعيد جداً. عروبة لا يمكن أن تقبل العمل في مكان تشعر فيه بأنها بلا فائدة، ولا يمكن أن تسمح لعمتها بجرها إلى الأعراس لاستعراضها أمام الناس، ولا يمكن أن تشعر بأنها "صفر على الشمال" في أي مكان تكون فيه. لو كانت عروبة مكانها لكان الوضع مختلفاً؛ كانت ستجد قضية تشغلها وتقاتل من أجلها، ستجد شيئاً تتمسك به فيدفعها للبقاء.

آمال لم تجد ذلك الشيء، فقررت السفر.

الفصل الثاني عشر

جلسة عـــــائلية

انتهى وقت التردد. أصبح الأمر رسمياً وصار أفراد العائلة يتصلون بها إما من باب الفضول لمعرفة سبب قرارها المفاجىء، وإما للتلميح إلى أنّه أمر مستغرب وطرح أسئلة حول موقف أبيها وعائلتها من الأمر، أو للتقصي حول الكيفية التي حصلت بها على الوظيفة وإمكانية وجود فرص مماثلة لابن فلان الفلاني، لأنه "صارله أربع سنين متخرج ومش ملاقي شغل". لكن من وقت لآخر كان يردها اتصال من أحد من الأقارب هدفه الوحيد رؤيتها قبل أن تسافر.

أحد هذه الاتصالات كان مفاجئاً أكثر من غيره. كان الشخص على الطرف الآخر من المكالمة هو عمها عبد الجواد المغترب في أمريكا منذ سنوات، أو جواد كما كان اسمه المتعارف عليه بينهم. كان الصوت أوضح من المعتاد هذه المرة، وقطع شك آمال باليقين حين قال لها: "احكي لإمك أنا جاي عندكم وجاي عبالي منسف" كان في عمّان في زيارة مفاجئة كما هي كل زياراته. ربما لو كان شخصاً عادياً أو مملاً لما كان للمفاجأة أي وقع عليهم ولما تعدت كونها وسيلة بليدة لإعطاء نفسه أهمية أكبر من حجمه، لكنّه كان ينجح في مفاجأتهم في كل مرة، فهو

عمّهم المفضل الذي يتطلعون إلى زيارته وتحتل قصصه حيزاً لا ينازعها فيه شيء في ذاكرتهم، وهو يعرف ذلك.

حرص الجميع على أن يكونوا في البيت ذلك المساء لاستقبال العم جواد، ليس أهل البيت فحسب بل جاءت عمتها وأقارب آخرون من عائلة أبيها مع أولادهم، فالكل يعرف أنّ جلسة كهذه لا تحدث كل يوم ولا يمكن تفويتها، خاصة أنّ جواداً لم يأت إلى عمّان منذ عامين. كانوا يتمنون أن يعود للاستقرار هنا ويحاولون إقناعه بالأمر فيرد عليهم دائماً بالعبارة نفسها: "ابعد تسعد"... وحين يرد عليه أحدهم ب أنّ "البعد جفا" يقول ممازحاً: "عمي تردوش على هالحكي، البعيد بنشتاقله وبنكيف عليه، لو إنّي هون كان قرفتوني وصرتوا تقولوا هاظا عمي ثقيل الدم اللي ما بنضب لسانه بحلقه"

"عمي جواد" قال ثائر كأنّه يناديه من أعلى جبل، لا من الطرف الآخر من غرفة الجلوس، "هات احكيلنا شو شفت شوفات جديدة في أمريكا، سمعت بتنزل بتتسبح عالشط كتير"

"عيب عمي عيب، خواتك قاعدين" يغمزه عمّه. "بحكيلك بيني وبينك"

هنا يتدخل أبو ثائر: "يابا، بقولّك فش أكذب من شب تغرّب وختيار ماتوا اجياله، عمك ختيار تغرّب يعني أكذب من الاثنين"

يضحك الجميع بصوت واحد إلا عبد الجواد الذي يقول محتجاً: "الله يسامحك! هاد كيف لو إنّي مش أصغر منك؟"

"وأم أحمد شو رأيها بالموضوع؟" توجه أمّ ثائر الحديث إلى زوجته الجالسة إلى جانبه مكتفية بالضحك من الموقف. "خليني ساكتة، ليش هو شايف إشي أصلاً، خربان الزلمة بطسّش" تقول أم أحمد فيزيد احتجاج زوجها ويعلو الضحك أكثر.

لم يكن عبد الجواد يحب أن ينادوه "أبو أحمد"، وكان يصر دائماً على أن يبدو أصغر من عمره ويصرّ على وجود خطأ في شهادة ميلاده و أنّه أصغر بعامين من عمره المذكور في الأوراق الرسمية. لعل هذا التعلق بالشباب هو ما كان يجعله لا يسأم رواية قصصه ومغامراته أيام شبابه، أو لعل تلك القصص التي عاشها هي سبب تعلقه بمرحلة مضت ولن تعود من حياته. أياً كان السبب والمسبب، لم يكن ذلك يشكل فرقاً لأحد، فقد كانوا يستمتعون بسماع تلك القصص بل ويذكّرونه بقصص سمعوها منه سابقاً ليعيد حكايتها لهم.

كانت كثير من قصصه تدور حول الفترة التي قضاها في الخدمة العسكرية، ويصر على أنّهم يجب أن يعيدوا فرض خدمة العلم "عشان يلمّوا الشباب من الشوارع ويساووهم زلام" على حد تعبيره، فيعارضه أحد الشباب الجالسين قائلاً إنّها مجرد إضاعة للوقت، ثم يطرح عليه سؤالاً لدعم وجهة نظره:

"يعني إنت لولا الجيش ما كنت طلعت زلمة؟"

"عمي هداك الزمن كنا زلام بجيش وبدون جيش، مش زي هسا الواحد بعرفش الشب من البنت، بس يعني بتقدر تقول الجيش شد حيلي وعلمني النظام"

"نظام؟" تتدخل زوجته. "لتتعلم تعلّق بيجامتك أول بدل ما تتركها مزتوتة عالأرض"

"هو إنت بتحكيش إلا عشان تفشليني قدام الناس؟" يقول عبد الجواد والضحك يغالبه. "ساكتة على غش الله وكيلكم! الله يصبرني عليكي"

"بس الواحد يحكي اللي إلو واللي عليه" تابعت أم أحمد "أحسن إشي إنّه علموك كيف تسمع الكلمة وتشتغل من تم ساكت"

يقطع ثائر شجارهما الشكلي ليطلب من عمه أن يغني لهم أغنية من الأغاني التي كانوا يغنونها أيام الخدمة، فيعتدل عمه في جلسته ويتأهب لبدء الغناء بصوته الذي يشبه صوت حجر الرحى، كما يصفه أبو ثائر، ومع ذلك يطرب له الجميع وك أنّهم يستمعون إلى عبد الوهاب، بل ويشاركونه الغناء والتصفيق. يبدأ العم جواد عادة بأغنيته المفضلة والتي حفظتها العائلة عن ظهر قلب:

حملونا ولبسونا البندقية

بندقية ما تقاوم مدفعية

مدفعية ما تقاوم رشاشاتي

رشاشاتي ما تقاوم دباباتي

دباباتي ما تقاوم صواريخي

صواريخي ما تقاوم طياراتي

طياراتي ما تقاوم أردنية

وفجأة يتذكر جواد حادثة مرتبطة بهذه الأغنية، ويتذكر شخصاً معيناً فيسهب في الحديث عنه وفي النهاية يقول: "وإجا عليه المقدّم وهو على الأرض وحكاله: بتعرف تيس عاهرة؟" ثم ينفجر ضحكاً، ويضحك الجميع معه، مع أنّ قليلين منهم فقط يعرفون قصة "تيس عاهرة" والبقية لا يجرؤون على السؤال عنها ل أنّ طريقة ضحك عمهم توحي ب أنّها قصة لا تصح حكايتها علناً.

"بس أكتر واحد ارتاح لما رحت عالجيش كان عطا بياع الترمس" يستطرد جواد بعد أن يهدأ الضحك. "كان زلمة على نياته، وكنّا مستلمينه أنا وفوزي واسماعيل اولاد الجيران، كنّا نعمل فيه العمايل. مرة عملنا حالنا بنتخانق قدامه، وطلّع فوزي مسدس صوت وعمل حاله بطخني، وأنا كنت حاطط بقميصي زر بندورة فقعته ووقعت عالأرض كإنّي ميت. المسكين عطا انجن وصار يركض ويصيح "قتيل... قتيل". طبعاً أنا قمت وهربت، ولما رجع بعد دقيقتين جايب الناس يشوفوا القتيل ما لقاش حدا، صار يضرب أخماس بأسداس"

يمزج جواد قصصه بمؤثرات صوتية وحركات تمثيلية تُسيل دموع من حوله ضحكاً، ويضحك معهم ك أنّه هو نفسه يسمع تلك القصص لأول مرة. لكنّ أبا ثائر لا يضيع فرصة لإخراج أخيه من دائرة الذكريات وإعادته إلى الواقع. فجأة، قبل أن يفتتح عبد الجواد قصة أخرى يباغته أخوه الأكبر بقوله:

"طبعاً نص الناس اللي بحكي أسماءهم في هاي القصص مراحيم"

لا يبدو على عبد الجواد الانزعاج من تغيير مسار الحديث إلا أنّه يقول بصوت أقل ثقة:

"شو بتحكي يا زلمة؟"

"بتتذكر آخر مرة إجيت فيها عالبلد في العيد؟" يرد أبو ثائر. "طلعنا نعيّد على الناس الصبح وبعد ما وصلنا لراس الحارة وقّفت وقلتلي: على مين بدنا نعيّد؟ ما كل اللي كنا نعيّد عليهم ماتوا..."

يطلق العم جواد ضحكة عالية وكأنّ القصة كانت غائبة عن باله تماماً وتذكرها للتو.

"أعوذ بالله منك!" يقول جواد وسط ضحكه، ثم يلتفت إلى أخيه وكأنّه سيحكي قصة لن يفهمها أو يعرف شخصياتها غيرهما. "بس بدك الصحيح مزبوط. بطّل الواحد ملحق عزيات، يا من ترانا طالعين من عزا وداخلين على عزا." ثم يدفع بنفسه إلى طرف المقعد وكأنه

تذكر قصة مهمة لتو. "بتذكر في عزا سمير علاوي لما وزعوا كنافة آخر يوم، كنت قاعد جنب أبو هاشم وقلتله: "متى بدنا نوكل كنافتك؟" عم بمزح معاه، وهو صار يضحك مسكين. ما مر أسبوع إلا إجانا خبره"

يتمتم الجميع دعوات مختلفة لأبي هاشم، الذي لا يعرف معظمهم عنه سوى أنّه ذلك العجوز الهزيل البشوش الذي اعتادوا رؤيته في المناسبات الاجتماعية، لكنّ العمة عَلَميّة بوصفها خبيرة الأنساب في العائلة تأبى إلا أن تعطي كل ذي حق حقه.

"الله يرحمه..." تقول عَلَميّة بينما تدور خرزات المسبحة بين أصابعها بحركة تلقائية. "هادا كان صاحب أبوي من زمان، بس هو أصغر من أبوي الله يرحمه بأبو عشر سنين. كان عايش بحيفا قبل التمانية وأربعين، أمه وأبوه اتطلقوا وهو عمره ست أوسبع سنين، إمه تجوزت وأبوه تجوز. المسخمط كان يروح عند أمه يقوم جوز أمه يطرده من البيت ويروح عند أبوه تقوم مرة أبوه تخليه ينام في الحوش. وبعد كم سنة لما صارت النكبة شرد مع هاللي شردوا وإجا على عمّان وصار يشتغل على عربايـة ترمس، وبعدين تحسن وضعه واتجوّز وجاب اولاد، اولاده كبروا وتجوزوا ومرته ماتت وصفّا عايش لحاله، كانوا يطلطلوا عليه ويزوروه بس كل واحد كان ملتهي بحياته، واخوانه كانوا يزوروه في المناسبات. قبل ما يموت إجت بنته لقته غرقان بدمه، طلع المسكين معاه هداك المرض في المعدة وساكت على حاله، ما حكى لحدا ولا تعالج، كنّه زهق المسكين، ما هو الواحد بس يكبر

ويهرم بِحِن للتراب، كيف لعاد؟ هيك البشر، من التراب للتراب... يا ويلي عليه! قعد في المستشفى يومين ومات."

يسود الصمت المكان. من كان يتخيل أنّ أبا هاشم، ذلك العجوز ضعيف البنية والبصر كثير الابتسام كان يخفي كل هذه التفاصيل؟ حياة كاملة من الألم والتشرد، أبناء وإخوة كانوا أشبه بعابري سبيل في حياته، أو لعله هو كان عابر سبيل في حياتهم. صمت الجميع وكأنّهم يقدمون تحية احترام واعتذار لذلك الشخص الذي لم يهتم أي منهم يوماً بمعرفة شيء عن حياته، والذي قد لا يأتون على ذكره مرة أخرى، لكنّ هذه اللحظة من حياتهم كانت له، له هو.

"الله يرحمه" يقول عبد الجواد كاسراً الصمت كعادته. "ارتاح". ولما كان لا بد من تغيير الموضوع، التفت إلى آمال التي كانت أفكارها قد حملتها بعيداً، لتعود إلى جسدها فجأة حين سمعت عمها يقول موجهاً الحديث إليها:

"شو عمي آمال، خلص دبي؟"

نظرت إليه آمال وكأنّها لا تعرف ما الذي يتحدث عنه، إلا أنّها تداركت نفسها خلال لحظة وابتسمت ابتسامة مفتعلة. "إن شاء الله"

"على خير." قال جواد وهو يسند ظهره إلى الأريكة. "خلص بدك تصيري خليجية يعني؟"

"لأ عمو، هو شغل مؤقت بس"

"مؤقت!" قال كلمته وابتسم.

شعرت آمال بأنّه يريد قول المزيد. "آى، مؤقت" قالت في محاولة استفزازية لحمله على البوح بما يفكر فيه، وإن كانت تعرف أنّه سيبوح به على أي حال.

"خليني أحكيلك هالقصة" اعتدل عبد الجواد في جلسته واكتسى وجهه بجدية طفيفة. "هادا قبل تلاتين سنة في واحد قرر يسافر على أمريكا يدور على رزقته، ما هو على رأي المصريين الرزق يحب الخِفيّة، قال بشتغل كم سنة وبحوّش كم قرش وبرجع، ما هو الواحد ما إلو غير بلده في الآخر، ومن طين بلادك لط عخدادك. المهم، والحمد لله، الله فتحها عليه هناك وبعد كم سنة صار وضعه فوق الريح، وصار بيقدر يرجع، بس الزلمة تعود على الحياة السهلة والمريحة، كان كل شي بدّو إياه تحت إيده، بطّل يقول من طين بلادك لط عخدادك صار يقول مطرح ما بترزق إلزق... ولزق هناك"

ابتسمت آمال، فهمت قصده لكنّها لم تتأثر. "اطّمن عمو أنا ما بلزق. ما بقدر أبعد عن أهلي كتير"

"إنت بتقولي هيك" رد عبد الجواد بنبرة أكثر جدية لم تسمعها آمال منه في حياتها. "بس صدقيني، رح تصيري تقدري على أشياء كثير"

سَرَت في جسد آمال رعشة مفاجئة. لم تقل شيئاً.

"عمي..." استأنف جواد كلامه، "البني آدم بس يلاقي حاله في مكان مرتاح فيه، والناس بقدروه ومش ناقصه ولا ناقص عيلته إشي عقله بنقلب، أولوياته بتتلخبط، في إشي في مخه بضرب وبتصير كلمات الوطن والأهل وتراب الوطن إلها معاني تانية، أو بتغير وزنها عنده لأنّه بصير يحسب الأمور بمنطق تاني... تفكريش إنّك رح تضلي تفكري زي ما بتفكري هسّا. أنا ما بقولك إنّك رح تبطلي تشتاقي لبلدك وأهلك، بالعكس بتصيري تشتاقيلهم أكثر، وهون المشكلة، لأنهم هم اللي بصيروا إشي مؤقت في حياتك"

صمتت آمال وصمت الجميع، أرادت أن ترد عليه بأنّ وضعها مختلف، وأنّ دوافعها مختلفة، وأنّها تفكر بشكل مختلف، لكنّ الأفكار تضاربت وتداخلت في رأسها فلم تستطع استجماع فكرة واضحة واحدة تتفوه بها.

"على العموم" قال عبد الجواد وهو يهم بالنهوض، "أنا نبهتك وبرّيت ذمتي، إنت كبيرة وفهمانة وبتعرفي شو بتعملي. الله يوفقك يا عمي"

لم تفهم آمال تماماً سبب الرعشة التي انتابتها، لكنّ تلك الرعشة تحولت فيما بعد إلى شعور غريب بالارتياح. ارتياحها كان مفهوماً، فلعل الاعتياد على البعد هو ما تريده فعلاً، لعلها تريد إضفاء ذلك الطابع الشعري الحالم على البيت والوطن بحيث تصبح مجرد مفردات تتغنى بها حين تخالجها رغبة في البكاء. تلك رغبة تجتاحها من وقت لآخر حين تشعر بحنين غريب لا تعرف مصدره. هنا تعتبر ذلك انكساراً لا مبرر له، يشعرها بالخجل، لكن في

الغربة يصبح الحنين غاية بحد ذاته، وتصبح تلك الرغبة ضرورة حتمية ونتيجة طبيعية. ستتخيل وجوههم وجهاً وجهاً وتستعيد لحظات بعينها. ستتصور أموراً لم تحدث، وأموراً قد تحدث، وأموراً لن تحدث. ستستسلم لتلك الهواجس حتى تنهار بإرادتها وتنهض من جديد لتعيش يوماً آخر، ستكون حرة في ضعفها، وحرة في قوتها، هناك في عزلتها ستكون إنسانة كما يحلو لها، وسيكون انكسارها مبرراً.

قليل من الانكسار المشروع وكثير من العزلة، أوليس هذا ما تريد؟

الفصل الثالث عشر

ذاكرة المكان

بقي يومان. تبدو مدة طويلة وغير كافية في الوقت ذاته، فهي تشعر بأنّها تحتاج إلى مزيد من الوقت، لا تعرف لماذا... تريد مزيداً من الوقت فحسب. ربما هي معضلة الإنسان الأزلية مع الانتظار، علاقة حب وكراهية: ننتظر حدوث شيء يغير كل شيء، أو يغير نظرتنا للأمور ويكشف لنا حقائق كنا نجهلها فيصبح الطريق واضحاً أمامنا. يعذبنا الانتظار، وقد لا نملك سبباً منطقياً له أو حتى ما يؤكد أنّ ما ننتظره موجود أصلاً، لكنّنا ننتظر رغم كل شيء.

لعل هذا هو السبب الذي دفعها للخروج ذلك اليوم، كأنّها حين أدركت أنّه لم يعد للانتظار معنى ولا طائل قررت الخروج بنفسها للبحث عن ذلك الشيء، لعلها تجده تائهاً في طرقات المدينة أو تقرؤه على جدران مبانيها أو تهمس لها به بين ضوضاء السيارات وأحاديث المارة... أو لعلها فقط أرادت إلقاء تحية الوداع عليها، واستئذانها بالرحيل.

لم تقصد وجهة معينة، راحت تمشي في تلك الشوارع المألوفة كما كانت تفعل كل صباح منذ أعوام لم تعد تحصيها، فيما كانت تعتبره أكثر عادة صحية لديها. كانت تحب المشي وحدها وتتهرب من أي جارة تبدي

رغبة في مشاركتها نشاطها الصباحي، كأنّها تعيش حالة صوفية تتطلب عزلة تامة عن البشر. وهكذا أصبحت تعرف شوارع اللويبدة كظاهر يدها، كل لافتة محل وكل شرفة بيت تطل على عمّان القديمة وكل رصيف تتناثر فوقه أزهار الياسمين أوائل تموز. تتخيل نفسها راعياً صغيراً مشى هنا قبل مائة عام متلبداً بعباءته من برد الصباح ليعطي بذلك هذه المنطقة اسمها المعروف، وهي الرواية المفضلة لديها عن سبب تسمية الحي.

تمر بمنزل "الست جورجيت" التي اعتادت رؤيتها كل صباح وهي تشرب قهوتها على الشرفة، تلك السيدة الستينية بشعرها الرمادي القصير وفساتينها "المورّدة". تحييها بصباح الخير فترد عليها التحية في كل مرة بشكل جديد، "صباح الورد"، "صباح الفل"، "يا صباح الخيرات"... أصبحت تحيتهما المتبادلة روتيناً صباحياً لا يقل أهمية عن قهوة الصباح، وإذا ما حلّ موسم عيد الميلاد أو عيد الفصح تنتظرها بصحن من الكعك أو بعض البيض الملون، فتحرص آمال على رد الجميل بالطريقة نفسها كلما أعدت أمها كعك العيد أواخر رمضان.

تكمل طريقها لتقطع دوار باريس، أو دوار "الحاووز" كما يسميه الكبار، ذلك "الحاووز" الذي كان لفترة طويلة من الزمن يزوّد وسط البلد بأكمله بالماء، وتنزل حتى تصل إلى المبنى الذي كان ذات يوم منزل الجنرال البريطاني في الجيش العربي "غلوب باشا"، قبل أن يتحول إلى أحد مباني دارة الفنون. تتمنى لو كان جدها

أبو غازي حياً ليرى كيف تحول منزل أحد أكبر رموز الاستعمار إلى مركز ثقافي مفتوح لعامة الشعب.

عادة ما تُنهي رحلتها الصغيرة هناك وتعود إلى بيتها من الطريق نفسه، لكن هذه المرة قررت الابتعاد أكثر. نزلت الشارع المؤدي إلى شارع الأمير محمد، همّت بإكمال طريقها نحو وسط البلد لكنّ فكرة ما أوقفتها. هي تحب وسط البلد كثيراً، تحب كل شيء فيه: كشك كتب أبي علي الشهير، محلات بيع الأفلام المقرصنة، عصير القصب، المسجد الحسيني، بائع الشاي في الساحة الهاشمية، المدرج الروماني، محلات الأحذية المستعملة، واجهات الفنادق الرخيصة... كل شيء. لكنّ شيئاً ما هزّ تلك الصورة الوردية في ذهنها ولم تستطع تجاهله أو محوه من ذاكرتها.

عادة ما كانت تنزل إلى وسط البلد خلال النهار فترى كلّ أصناف البشر، وترى المتشردين يأكلون على الرصيف ويتحدثون إلى المارة حول مختلف المواضيع، لكنّها لم تفكر يوماً أين يذهب هؤلاء إذا خيّم الظلام وعاد كل إلى دفء بيته وعائلته. لم تفكر في ذلك حتى رأته بعينها ذات ليلة حين ذهبت مع خالها عمر وزوجته وعروبة وثائر لتناول العشاء في مطعم هاشم، وبعد أن أنهوا عشاءهم قرروا المشي باتجاه الساحة الهاشمية، وفي الطريق إلى هناك رأت أناساً يفترشون الأرض، يلفون أنفسهم بأغطية بالية ويخلدون إلى النوم على مرأى من المارة، كأنّ ذلك أمر عادي، كأنّ هذا الرصيف هو مأواهم ومهجعهم، كأنّهم لا يأبهون بأحد. ولِمَ يأبهون بأحد إن لم

يكن أحد يأبه بهم؟ شعرت آمال بأنّها طوال تلك السنوات كانت تتجاهل حقيقة واضحة: من لا مأوى له في النهار، لا مأوى له في الليل. راحت الأسئلة تتضارب داخل رأسها، كيف وصلوا إلى هنا؟ أليس لهم عائلات؟ هل تعرف وزارة التنمية الاجتماعية بأمرهم؟

"ناس مش لاقية سقف تنام تحتيه وناس بتتمشور بسيارات على حساب الحكومة" تعلّق عروبة على المشهد الذي يظهر من هدوئها أنّها لا تراه للمرة الأولى.

لن تذهب باتجاه وسط البلد، قررت آمال، فهي ما زالت تشعر بالذنب من تعاملها معه كوجهة سياحية طوال تلك الأعوام. أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أخذها إلى الدوار الأول. صعدت السيارة الشارع الطويل المؤدي إلى الدوار الثالث ومنه إلى الدوار الثاني حيث يصطف طابور دائم أمام "شاورما الريم" وتجلس عائلات للتنزه داخل الدوار غير عابئة بما حولها من ضوضاء وعوادم سيارات. هذه المرة لفت انتباه آمال رجل يجلس على مقعد داخل الدوار، يضع بجانبه حقيبة سفر ويقرأ كتاباً. يبدو أنّه سائح مقيم في الفندق الواقع على الدوار ينتظر سيارة تقله إلى المطار، ولا يريد إضاعة أي وقت. تمنت لو كان هذا المشهد مألوفاً أكثر، من دون أن يتضمن حقيبة سفر أو ملامح أجنبية.

نزلت من سيارة الأجرة عند الدوار الأول لكنّها لم تدخل إلى شارع الرينبو، بل اتجهت إلى الشارع الآخر حيث يقع مستشفى ملحس، ذلك الصرح الذي سمعت قصته لأول مرة من أبيها وهي طفلة لم تتعد العاشرة من

العمر، إلا أنّها ظلت مرجعاً لها إلى الآن كلما اختلط عليها معنى الوطنية. تتذكر كل التفاصيل التي سمعتها منه مراراً وتكراراً، إذ كان يروي القصة كما رواها له والده من قبل، يحكيها وكأنّه شهد أحداث تلك الفترة بنفسه.

"الله يرحمه الدكتور قاسم ملحس، كان أبوي يعرفه منيح، زلمة إذا انحط على الجرح بطيب" يبدأ والدها سرد القصة بينما تخترق سيارتهم البيضاء القديمة الشارع الضيق المقابل للمستشفى. "بنى هاذي المستشفى سنة الخمسة وأربعين، أهل عمّان وقتها انصدموا، كيف ببني مستشفى في آخر الدنيا؟" يشرح لهم كيف كان أهل عمّان في الأربعينيات يجدون صعوبة في الوصول إلى منطقة جبل عمّان التي كانت بعيدة عن مركز المدينة، حتى إنّهم كانوا يسمونها "البرّية"، ثم يحدثهم عن الصعوبات التي واجهت الدكتور ملحس من نقص في الأجهزة والكوادر الطبية، لدرجة أنّه كان يقوم بدور الممرض أحياناً ويتدرب على أساليب الجراحة لأداء وظيفة الطبيب الجراح أحياناً أخرى. ويحكي لهم كيف أدخل أول جهاز فحص بالأشعة إلى مستشفى وطني، وحين لم يجد شخصاً مختصاً بتركيبه تولى الأمر بنفسه غير آبه بالخطر الذي قد يعرض نفسه له، الأمر الذي حدث فعلاً حيث خسر بعض أصابع يده نتيجة ذلك.

"إنتوا بتعرفوا ليش بنى المستشفى؟" يقول والدها مخاطباً أفراد عائلته الذين يستمعون إليه بإصغاء. "كان يشتغل بمستشفى أجنبي، ومنعوه يعالج واحد من المرضى.... حس ساعتها إنّه البلد محتاجة لمستشفى

وطني يخدم كل الناس مين ما كانوا" ثم يسترسل في وصف شخصية الدكتور ملحس الوطنية والتي تتعدى مهنته كطبيب، حيث كان أثناء ثورة عام 1936 يقوم بتهريب الثوار ليلاً فيما السلطات البريطانية تتعقبهم في كل مكان، ويسترسل أكثر في وصف إنسانيته التي تجلت في رسالته لابنه حين أصبح طبيباً مطلع الستينيات، حيث يؤكد أنّ الطب والتجارة لا يجتمعان، وأنّ للمريض على الطبيب حقاً في أن يكون عالماً، ويوصيه بألا يترك دَيناً له على مريض، بل أن يسامح بما له دائماً، وألا يجعل المال ميزاناً لعمله.

تقارن آمال بين هذا النموذج الإنساني لمهنة الطب وما تسمعه الآن عن الأطباء والمستشفيات من قصص تتجلى فيها المادية والطابع التجاري الذي أصبح غالباً على المهنة، والتي كان آخرها قصة ذلك الرجل الذي أبقته المستشفى موصولًا بالأجهزة الداعمة للحياة لمدة ثمانية عشر يوماً إلى أن بدأت عائلته تلاحظ تغير لون جسمه وانبعاث رائحة كريهة منه، ليكتشفوا أنّه ميت منذ أيام، كل ذلك كي يستمر المستشفى في تقاضي المال منهم أطول مدة ممكنة.

تنقلت بين الأزقة حتى وصلت إلى شارع الرينبو، تراه الآن مزدحماً بالمحلات والمقاهي، لكنّها تتذكره حين كان أبرز مكان فيه بالنسبة إليها هو "حلويات الرينبو"، حيث كان والدها يأتي بهم لتناول التمرية التي كانت وما زالت نوع الحلويات المفضل لديها. كانت كلما مرت بشارع الرينبو تحرص على التأكد من أنّ ذلك المحل

الصغير القديم ما زال يحتفظ بمكانه وسط صخب الحداثة التي بدأت تفرض سطوتها على الشارع. ربما يعود ذلك إلى ما قاله صاحب المحل أبو تامر قبل بضع سنوات حين جاءت برفقة والدها لجلب الكنافة يوم نجاح عروبة في الثانوية العامة.

"الشغل بطّل زي أول" يقول أبو تامر رداً على استفسار أبي ثائر حول أوضاع العمل. "بس لساتنا بنفتح المحل كل يوم الصبح، مش عشان المربح، عشان نحافظ على تاريخ المحل وتراث الشارع". يحق له أن يعتبر محله رمزاً تراثياً - تفكر آمال- فهو موجود هنا منذ أكثر من أربعين عاماً، أي قبل أن يُولد معظم من يرتادون الشارع الآن، ويحق له أن يعتبر مهنته رمزاً تاريخياً، فقد ورثها من كلا جانبَي عائلته إذ كان جده لأبيه يملك محل حلويات في نابلس وجده لأمه يملك محلاً للحلويات في وسط البلد، حيث أسس والده محله أيضاً قبل أن يستقر أخيراً في شارع الرينبو.

ابتسمت وهي تتذكر كلامه وترى محله ما يزال متربعاً وسط الشارع وسط كل تلك المحلات التي تتجدد وتتغير باستمرار، وأخرى لا تتذكر أنّها كانت موجودة قبل بضع سنوات، الأمر الذي أكد لها حقيقة تدركها جيداً، وهي السرعة الكبيرة التي تنمو بها عمّان. تعرف ذلك وهي لم تكد تفارقها قطّ، فكيف إذا غابت عنها وعادت بعد أعوام، هل ستعرفها أم ستقف أمامها حائرة في ما تنظر إليه وهي تحاول تذكر ملامحها؟ شعرت بأنّها أمّ تودع طفلتها الصغيرة التي تخاف أن تكبر وتتغير بحيث لا

تعرفها حين تعود إليها، فتلتقيان كغريبتين، لا الطفلة تعرف أمها ولا الأمّ تعرف طفلتها.

لكن عمّان الآن ليست طفلة، بل هي تلك الحبيبة السادية التي تشعر بحاجة ملحة إلى تركها والابتعاد عنها مع أنّك تعرف جيداً أنها لن ترحمك إن فعلت. كان ذلك ما شعرت به آمال وهي تنظر إلى البيوت المتراصة والشوارع المتناثرة في الأفق الممتد حتى جبل القلعة. كانت تلك إطلالتها المفضلة، ظنت أنّها إن كانت ستجد الشيء الذي خرجت بحثاً عنه فستجده هنا، ستبوح لها المدينة به هنا بالذات، دوناً عن أي مكان آخر... لكنّها لم تسمع شيئاً.

ربما كانت هذه مجرد هواجس، طواحين هواء لا أكثر. كان عليها إقناع نفسها بذلك. إن لم تعرف ما الذي تبحث عنه فهو غير موجود على الأرجح. تجاهلت شعورها بوجود حلقة ناقصة، فهي لم تعد تثق بشعورها منذ زمن على أي حال، ولا سبب يدعو إلى تغيير ذلك الآن. ستقفل عائدة إلى بيتها وتوضب حقائبها، هذا كل ما عليها فعله. لم تفكر في شيء وهي تنزل الشارع المؤدي إلى وسط البلد حيث ستسلك طريقاً مختصرة إلى اللويبدة، لكن لا بد أنّها كانت تفكر في شيء ما، بل كانت تفكر في كل شيء حتى لم تعد تميز فكرة من أخرى، ولم تعد تدرك الناس والأشياء من حولها. كانت تمشي وهي تشعر بأنّها تهرب من شيء وتقترب منه في الوقت ذاته، راحت تسرع أكثر وتقترب أكثر، بدا كل شيء يسير في الاتجاه

الصحيح إلى أن سمعت ذلك الصوت الذي صمّ أذنيها واختزل كل ما كانت تفكر فيه وتبحث عنه في وجه واحد.

الفصل الرابع عشر

ذاكرة الوجـــــوه

تسمرت واقفة في منتصف الشارع، ليس بفعل الصدمة لنجاتها من حادث دهس - ذلك الشعور الشبيه بمخالطة اليقظة للحلم حين يشعر الإنسان بأنّه في لحظة ما وقف على الخط الفاصل بين الحياة والموت- لم يكن ذلك سبب ذهولها، حتى صوت احتكاك إطارات السيارة التي توقفت في اللحظة الأخيرة بدا مجرد صافرة تنبيه لتلتفت وترى ذلك الوجه لا غيره، وتقف عاجزة عن الحراك.

عادت إلى نقطة البداية، لماذا خرجت من البيت أصلاً؟ لا، لم تكن تبحث عن شيء لا تعرفه، ولم تكن تنتظر إشارة، بل كانت تبحث عن شيء تعرفه جيداً، شيء حاولت نسيانه بشتى الطرق حتى ظنت أنّها نسيته ولم تدرِ أنّها في الحقيقة دفنته في أحد أقبية الذاكرة ولم تضع عليه شاهداً تستدل به، ليعود صداه لملاحقتها من جديد في أسوأ وقت.

ما كانت لتسمح له بذلك، كان يجب أن يذهب بلا رجعة. كان يجب أن يموت.

لكن ذلك الوجه في السيارة، هل كان حقاً هو الوجه الذي تبحث عنه؟ هل قادتها خطواتها إلى هذا اللقاء القَدَري كي تعرف ما تبحث عنه، أم لعلها كانت تعرف ما

تبحث عنه أصلاً وقررت أن تراه هناك، في تلك اللحظة، في ذلك الوجه أياً كان؟ لا يهم، كل ما تعرفه هو أنّه يشبهه كثيراً، أو على الأقل هذا ما رأته.

نزل من السيارة، اطمئن عليها، اعتذر رغم أنّ كلاهما يعرف أنّها غلطتها، لكنّ ذهولها وصمتها أجبراه على ذلك. لم تكن تعي ما يقول، لم تسمع منه شيئاً. هزت رأسها وابتعدت مسرعة. ربما ظنها مجنونة، فليظن ما يشاء، هي لا تعرفه على أي حال، وهو لا يعرفها، ولا يعرف أنّ لقاءه اللحظي بها كان الحلقة الضائعة التي خرجت تبحث عنها.

"أيمكن؟" سألت نفسها. أيمكن أن يكون هو السبب؟ سبب كل هذا، السبب في شعورها بالغربة، بالبعد عمّن حولها، بالنقص... لكنّها حددت له حجمه منذ وقت طويل. نعم، لقد سبّب لها من الإحباط ما يكفيها بقية حياتها مهما طالت؛ لم تكن لتسمح له بأن يفسدها عليها. كان له دور وانتهى كما ينتهي دور أي شخص آخر في حياة أي إنسان. لكن ألم تقتله بداخلها منذ سنوات، ألم تتخلص منه إلى الأبد، لماذا يعود شبحه يتربص بها الآن؟

"لست هاربة منه" راحت تقنع نفسها. "لست هاربة من شيء". عرفت أنّها تكذب. هي لم تتعامل مع الأمر، نسيته فحسب، ظنت أنّ الغياب سيكون خير علاج لأي مشاعر لديها. لو استطاعت أن تكرهه لكان الأمر أسهل، لكنّه لم يعطها أي سبب لذلك. كان عليها أن تجد الأسباب بنفسها، ليس لتكرهه بل لتخرجه من قلبها فحسب. لكن كيف وبأي وجه حق؟ هو لم يرتكب جرماً يُعاقب عليه

بالنفي، هي من سمحت له بالتوطن هناك، كل ذنبه هو أنّه لم يعاملها بالمثل. وهل يعدّ هذا ذنباً حقاً؟ هو لم يعدها بشيء، لم يعطها أي أمل. كل ذنبه، إن كان ذلك يُعد ذنباً، هو أنّها وجدت فيه كل ما تريد، ولم تكن كما يريد.

توقفت في مكانها. لم تكن تعرف إلى أين وصلت أو كم مشت، لكنّ تلك الفكرة أعادت إليها الشعور بالزمان والمكان من جديد. "كل ما أريد" أعادت العبارة في رأسها عدة مرات. هي تعرف جيداً أنّها لا تعرف ماذا تريد، فكيف يكون هو ما تريد؟ ستسافر بحثاً عما تريد، ليس بحثاً عن شخص بل عن فكرة. الفكرة هي المهمة. الفكرة لا الشخص. تلك كانت غلطتها، لقد تعلقت بشخص لا بفكرة، جعلته هو الفكرة، أصبح معياراً تقيس عليه الأشخاص والأشياء فلم يعد يعجبها شيء.

"كان الشخص الخطأ، ولم يعد له مكان هنا". كان ذلك القرار الذي خشيت اتخاذه طوال هذا الوقت، وكان لا بد من الاعتراف. كانت مخطئة، آلمها الاعتراف بذلك، لكنّها شعرت بهدوء غريب؛ شعور يشبه راحة المسافر بالبحر حين يلمح أول بوادر اليابسة، راحة من عرف الطريق... هي الآن تعرف الطريق، لم يعد ثمة ما يغشي بصرها، كل شيء واضح، كل شيء في مكانه، والآن فقط أصبحت مستعدة لتوضيب حقيبة السفر.

الفصل الخامس عشر

حقيبة سفر

"من أين أبدأ؟". كان ذلك أول سؤال تبادر إلى ذهنها حين أنزلت حقيبة السفر الكبيرة من فوق الخزانة، لكنّ كمية الغبار التي نُفضت عن سطح الحقيبة في اللحظة التي لامست فيها الأرض طرح أمامها سؤالًا آخر: "كيف تعرف من أين تبدأ؟"

في تلك اللحظة فقط أدركت أنّها لم توضّب حقيبة سفر قط. صحيح أنّها وضبت حقيبة صغيرة مرة أو مرتين حين كانت تذهب مع عائلتها في إجازات قصيرة إلى العقبة أو حين كانت تبيت بضعة أيام عند عمتها بعد وفاة زوجها، إلا أنّها لم تضطر قبل هذا اليوم إلى توضيب حقيبة تنقل فيها حياتها كاملة من مكان لآخر، فهذه ليست رحلة يوم أو يومين، لا يمكنها العودة لأخذ شيء نسيته متى أرادت أو لأنّها لا تستخدمه كثيراً، لا يمكنها المجازفة بترك أي شيء ُيحتمل أن يلزمها هناك. لكن كيف لها أن تعرف وهي لم تفعل ذلك سابقاً؟

فتحت الحقيبة ووضعتها جانباً ثم فتحت باب الخزانة على مصراعيه ووقفت أمامها. راحت تنقّل نظرها بين الحقيبة والخزانة، تمنت لو أنّها تستطيع حمل الخزانة بما فيها وطيّها ووضعها في الحقيبة، سيكون ذلك أسهل حتماً. لكن لم تكن تلك المشكلة الوحيدة؛ لم تكن هي

المشكلة أصلاً. من السهل أن تعرف ما تحتاج إليه من ملابس، والأسهل من ذلك أن تشتري ملابس جديدة إن احتاجت إلى ذلك، المشكلة لم تكن هناك. المشكلة الحقيقية كانت مختبئة في تلك الدروج التي قد تمر أشهر من دون أن تفتحها أو تنظر إلى ما فيها من أشياء لا يمكنها استبدالها أو شراء غيرها أو الاستغناء عنها. أغلقت الخزانة والحقيبة وفتحت أول دُرج.

كان الدُرج مزدحماً بأشياء كثيرة لا علاقة لها ببعضها، أو "الأطلال" كما يسميها ثائر الذي كان يؤيد أمه في تذمرها من احتفاظ آمال بكل هذه الأشياء التي تشغل حيزاً يمكن استخدامه بشكل أكثر جدوى. كان لدُرج الأطلال هذا رائحة مميزة، بل كان لكل ما فيه رائحة خاصة تذكرها بشيء معين. للماضي رائحة تتعدى حدود الزمان والمكان، حتى إنّنا أحياناً قد لا نتذكر المواقف أو المشاهد المرتبطة بها لكنّها تعيد إلينا مشاعر عشناها دون أن تكون لدينا أدنى فكرة كيف أو أين أو متى، أو ربما كنا أصغر من أن نتذكر.

نظرت إلى الأغراض المرتبة في الدُرج نظرة فاحصة، للحظة شعرت بأنّه من السخافة أن تحمل كل هذه الأشياء معها وأنّ عليها إبقاءها هنا في مكانها، فهذا سيبقى بيتها أينما رحلت، وستبقى ذكرياتها هنا. لكنّها لا تستطيع تركها كل هذه المدة أيضاً، فهي بين الحين والآخر تعود إليها دون سبب معين، تفتح الدروج فتُخرج بعض ما فيها، تستعرضها، ترتبها من جديد، وبين فتح الدرج وإغلاقه رحلة عبر الزمن. تفعل ذلك كل شهرين أو ثلاثة، وقد

تطول المدة أو تقصر، إلا أنّها تعرف أنّ آلة الزمن تلك موجودة في مكانها حين تحتاج إليها، ومن الجنون أن تسافر من دونها.

في زاوية الدرج كان هناك منديل ورقي أبيض، لا يميزه شيء سوى كتابة بحبر باهت على طرفه تقول: "توجيهي، 2000/3/7، الساعة 10:35، حصة إنجليزي". لا تتذكر آمال شيئاً من تلك الحصة أو من ذلك اليوم غير أنّ ندى كانت جالسة بجانبها، ومن باب الملل لا أكثر تناولت منديلاً كان أمامها وكتبت عليه ذلك وأعطتها إياه. عبارة واحدة بقلم حبر أعطت ذلك المنديل الهش قيمة خاصة، فبدل أن يكون مصيره سلة المهملات كغيره أصبح أشبه بوصي على ذاكرة معينة، تلك اللحظة التي كان هو سبباً في حفظها دوناً عن غيرها، ولولاه لضاعت كغيرها ولم تتذكرها آمال في حياتها. ابتسمت آمال لفكرة أنّ ذلك التاريخ وتلك الساعة وتلك اللحظة لا يميزها أي شيء سوى أنّ شخصاً ما قرر تدوينها من دون سبب فتحجرت وحُفظت في الذاكرة كما تُحفظ أحفورة في الصخر.

كان الدُرج أيضاً مليئاً بأشياء احتفظت بها لأسباب خاصة تعرفها جيداً، فقد كانت تدرك أنّ هناك لحظات تستحق أنّ نذكّر أنفسنا بها ولو بعد حين، ونعرف أنّ نسيانها سيكون أمراً مؤسفاً وإن لم ندرك ذلك بعد وقوع النسيان. كان من بين هذه الأشياء مريول المدرسة الأخضر المطوي في أسفل الدرج. قامت بانتشاله من تحت "الأطلال" الرابضة فوقه، لم تفعل ذلك منذ زمن طويل

حتى إنّها حين أخذت تقرأ ما كُتب عليه بالحبر وأقلام الطمس وجدت أسماء كثيرة لا تتذكرها، لكنّها تتذكر ذلك اليوم جيداً. كان آخر يوم لها في المدرسة الثانوية، واتفقت هي وصديقاتها على أن يكتبن على المراييل ويحتفظن بها للذكرى. أضحكتها عبارات مثل "لو كنت دمعة في عيني فلن أبكي" وغيرها من العبارات المبتذلة المتداولة بين المراهقات، وأضحكتها أكثر عبارات كتبتها لها إحدى زميلاتها التي كان أكثر ما تتذكره فيها ضحكتها، وأنّها لم تكن تستطيع إكمال قصة أو نكتة إلا بصعوبة بالغة لأنّ الضحك يغلبها في منتصف القصة دائماً. كتبت لها عبارات كانت ترددها المعلمات. لم تستطع تذكر جميع المعلمات أو ما كنّ يرددنه من عبارات، إلا عبارة واحدة تتذكرها جيداً، "أُمّ عيون مدورات"، وهو اللقب الذي كانت تطلقه إحدى المعلمات عليها إشارة إلى عينيها الواسعتين.

أعادت المريول إلى مكانه. نظرت إلى الأشياء التي كانت فوقه والتي وضعتها بجانبها على السرير، كان بينها صندوق خشبي صغير حملته ووضعته في حضنها. فتحته برفق وكأنّها تخشى على ما بداخله من أي حركة عنيفة، كأنّه قبو لمتحف تاريخي مليء بالمخطوطات الأصلية النادرة التي قد تتفتت بمجرد لمسها. لا تعرف لِمَ كانت تتعامل معه بهذا الحذر، فهي لا تكاد تتذكر ما يوجد بداخله أصلاً إذ إنّها لم تفتحه منذ أعوام. تأملته للحظات قبل فتحه، وكأنّها حين تفتحه ستنبعث منه قوة هائلة قادمة من الماضي البعيد وتسحبها إليه بلا رجعة؛ ربما كان هذا هو سبب حذرها، بشكل أو بآخر.

داخل الصندوق كان هناك كيس صغير يحتوي على أصداف وحجارة وثمرة بلوط ودبوس على شكل خنفساء. تتذكر الدبوس بشكل خاص، كان هدية من زميلة لها في الصف الخامس تركت المدرسة لتسافر مع أهلها إلى بلد آخر، فودّعت زميلاتها بالصف بهدية تذكارية لكلّ منهنّ، وقالت بصراحة إنّ هدية كل فتاة تتناسب مع درجة محبتها لها. حتى هذا اليوم لم تستطع آمال تحديد درجة المحبة التي تعبر عنها الخنفساء، لكن نظراً إلى أنّ إحدى الفتيات حصلت على علبة أعواد كبريت فقد لا يكون وضعها سيئاً جداً.

كان الصندوق يحتوي أيضاً على كمية كبيرة من الأوراق والبطاقات، تتذكر بعضها ويبدو بعضها الآخر خالياً من أي معنى ولا تفهم لماذا تحتفظ به، كتلك الصفحة المنزوعة من مجلة أطفال عربية. قرأتها مرة أخرى، تفحصت كل صورة فيها على الوجهين علها تجد ما قد يعني لها أي شيء، بلا فائدة. لكن بشكل أو بآخر كانت هذه الصفحة هي كل ما تبقى لها من مجموعة المجلات الضخمة التي كانت تمتلكها وهي طفلة. كانت مهووسة بمجلات الأطفال ولديها المئات منها، لكنّ شغفها بالقراءة تضاءل شيئاً فشيئاً ولم تعمل على إحيائه، أو لعله لم يمت وإنّما انشغلت عنه وتجاهلته فبقي نائماً لسنوات، والآن حان الوقت لإيقاظه. فكرت في ذلك وهي تنظر إلى تلك الصفحة المهترئة، الآن فقط عرفت سبب احتفاظها بها، وإن لم يكن ذلك السبب الأصلي.

وجدت جدول حصص مدرسية، أوراق تسجيل مواد في الجامعة، إذن خروج من المدرسة بمرافقة الأهل، ورقة رسوب في امتحان القيادة، وبطاقات معايدة في مناسبات مختلفة أو من دون مناسبات، من سنوات مختلفة. كانت هناك أيضاً أوراق عليها كتابات من أشخاص ما زالت تعرفهم وتسمع أخبارهم. يغمرها شعور غريب حين تقارن بين ما كانوا عليه وما أصبحوا فيه، شعور فيه شيء من الخوف وشيء من الدفء، لكنّه يرسم على وجهها ابتسامة على أي حال. ينتابها الفضول حين ترى أسماء أشخاص لم تعد تعرف عنهم شيئاً. غريب أن تقضي أعواماً مع شخص ما، تراه كل يوم، تقضي معه نصف نهارك، وبعد سنوات يصبح مجرد اسم، حتى إنّك قد تراه في الشارع فلا تعرفه.

لم تستطع قراءة كل الأوراق التي في الصندوق، ليس لأنّها لا تملك الوقت بل لأنّها بدأت تشعر بالاختناق، فأغلقت الصندوق وأعادته إلى مكانه. لعل هذا ما كانت تخشاه، جرعة زائدة من الماضي كفيلة بتنغيص يومك، وإن كانت ذكريات جميلة. تذكرت جملة سمعتها ذات مرة: "الأوقات المرة تصبح حلوة حين نتذكرها". الآن وجدت أنّ العكس قد يكون صحيحاً أيضاً.

اكتفت بهذا القدر، راحت تعيد كل شيء إلى مكانه، إلا أنّ شيئاً آخر استوقفها من جديد. كان ذلك ألبوم صور، وهو ما أصبح الآن أشبه بتحفة أثرية أو شيء يُستخدم فقط لحفظ صور الأعراس. لم يعد أحد يحتفظ بألبومات صور هذه الأيام، فالصور أصبحت رقمية، تُلتقط

بكميات هائلة بمناسبة وبدون مناسبة وتُحفظ في الكمبيوترات والهواتف، ويمكنك حذف أي صورة في اللحظة نفسها إن لم تعجبك والتقاط غيرها دون أن تنتظر يومين كي يتم تظهيرها فتكتشف بعد فوات الأوان أن الصورة التُقطت تماماً في الجزء من الثانية الذي كنت ترمش فيه. ربما جعل ذلك الصور العادية والألبومات تبدو شيئاً غير عملي وقديم الطراز، لكنّه في الوقت ذاته زاد من قيمتها. "على الأقل ما كان كل واحد معه كاميرا غالية يسمي حاله مصور" كما قال قريب لها يعمل في مجال التصوير منذ أكثر من عشرين عاماً ويحمل حقداً لا متناهياً على التكنولوجيا الحديثة.

فتحت ألبوم الصور، كان يحتوي على صور عائلية يعود بعضها إلى أكثر من خمسة وعشرين عاماً. لفتت نظرها صورة لها وهي طفلة، كانت تقف على طاولة بين والديها وأمامهم كعكة عليها ثلاث شمعات. لطالما تساءلت لِم يقيم الناس حفلات أعياد ميلاد لأطفالهم إن كانوا لن يتذكروها، إلا أنّها الآن وجدت نفسها تتساءل ما إن كان المهم هو أن نتذكر اللحظة أم أن نعيشها، خاصة أننا ننسى أكثر بكثير مما نتذكر. نعيش كي نتذكر وننسى كي نعيش، هكذا تستقيم الحياة.

"شايفة هاي الصورة؟" فاجأها صوتها وهي منغمسة في أفكارها، ليس لأنّها لم تنتبه لوقوفها خلفها فحسب، بل لأنها تخاطبها بشكل مباشر لأول مرة منذ أعلنت عن قرارها بالسفر. غمرها شعور فوري بالارتياح، وقالت من دون تفكير: "ماما..."

جلست إلى جانبها، أخذت الألبوم منها وأشارت إلى الصورة مجدداً. "شايفة حالك في هاي الصورة؟" أعادت السؤال مرة أخرى، ودون أن تنتظر إجابة تابعت وهي ترفع نظرها من الصورة إلى عينَي ابنتها: "أنا لساتني شايفتك هيك".

ابتسمت آمال مجاملة، لم يعجبها ما سمعته، هي تعرف أنّ أمها ما زالت تراها طفلة لا يمكنها الابتعاد عن البيت أو الاعتماد على نفسها، تعرف ذلك جيداً وتكرهه، إلا أنها تفهم اللاعقلانية في غريزة الأمومة الكامنة وراءه، أو بالأحرى لا تفهمها لكن تحترمها. لم تفهمها يوماً؛ لم تستطع أن تفهم السبب الذي يدفع امرأة لإنجاب أطفال فتصبح مسؤولة عنهم وتكرس حياتها من أجلهم دون أن تنتظر شيئاً في المقابل... لعل هذا السبب الذي يجعلها ترفض الاعتراف بأنّهم كبروا وبأنّهم سيبدؤون حياة جديدة بعيداً عنها؛ هذا شيء طبيعي.

"بتعرفي" استدركت الأم "لو كانت عروبة اللي بدها تسافر ما كنت بخاف عليها، عروبة وين ما بتحطيها بتيجي واقفة"

نظرت إليها آمال غير مصدقة ما تسمعه. "وأنا يعني اللي وين ما حطيتيني بوقع طب على وجهي؟"

"مش هيك" قالت الأم محاولة وضع الفكرة في إطار أفضل بعد أن لاحظت الغضب في عينَي ابنتها، أو ما يكاد يكون شعوراً بالإهانة. "بس إنت مش شغل غربة ودعك، إنت ما بتقدري تعيشي لحالك. بتتذكري لما كنت

صغيرة؟ ما كنت تقبلي تنامي في الغرفة لحالك، كنت كل ليلة ألاقيكي واقفة على باب غرفتي وتيجي تنامي عندي"

"ماما" قالت آمال بنبرة فيها شيء من الحدة. "كان عمري وقتها خمس5 سنين..."

"أمل..." خاطبتها أمها بالاسم اللي اعتادت مناداتها به، والذي كان يجعل آمال في كل مرة تنظر في عينَي أمها فلا ترى فيهما صورةابنتها بل صورة أختها التي توفيت قبل سنين طويلة. "في أشياء ما بتتغير، إنت بنتي وبعرفك"

سكتت آمال لبرهة، نظرت إلى الصورة التي بيد أمها: طفلة صغيرة، والداها من حولها، هي بالنسبة إليهما مخلوق عاجز يعتمد عليهما بشكل كلّي، لا تريد من الحياة سوى سريراً دافئاً وكأس حليب وبعض الرسوم المتحركة. ابتسمت، ليس مجاملة هذه المرة بل لسبب آخر خاص بها. سحبت الصورة من يد أمها بلطف، تأملتها لبضع لحظات.

"ماما..." قالت وهي ترفع عينيها من الصورة. "إذا إنت هيك مفكرة حالك بتعرفيني فللأسف إنت ما بتعرفي عني إشي"

أعادت آمال الصورة إلى يد أمها ونظرت إليها. "بصراحة، أنا حاسة إنّه حتى أنا بطلت أعرف حالي". قالت ذلك ونهضت دون أن تنتظر رداً من أمها التي بدت معقودة اللسان في تلك اللحظة، وخرجت من الغرفة تاركة إياها جالسة هناك أمام ألبوم الصور.

قادتها خطواتها بشكل تلقائي أقرب ما يكون إلى اللاوعي نحو باب الشرفة الداخلية الصغيرة حيث يجلس أبوها عادة، يطالع كتاباً أو جريدة أو يستمع إلى الأخبار عبر المذياع بعيداً عن ضوضاء التلفاز والأبناء. لطالما وجدت نفسها واقفة هناك كلما كانت تواجه مسألة صعبة في الرياضيات لا تعرف كيف تحلها، أو كلما واجهها أمر حيّرها ولم تعرف كيف تتعامل معه. كانت دائماً تجد نفسها أمامه كي يتخذ قرارها لها، ومع أنّها ظنت أنّها اتخذته بمفردها الآن إلا أنّها لسبب لا تعرفه وجدت نفسها هناك من جديد، واقفة كتلك الطفلة تحمل دفترها بيدها، لكنّها هذه المرة كانت تحمل سؤال واحد لا غير...

"أنا صح ولا غلط؟" طرحت السؤال دون مقدمات. رفع والدها عينيه من تحت نظارة القراءة ووضع جريدته على الطاولة الصغيرة أمامه. "صح أو غلط بالنسبة لمين؟" سألها بهدوء.

لم تعتد أن يرد عليها بسؤال، كانت إجاباته دائماً واضحة وحاسمة. تلعثمت، أشارت بيدها إلى نفسها ثم ألقت بذراعيها في الهواء معلنة الحيرة التامة.

"أمل" قال وهو ينهض من مقعده. لم ينادها بهذا الاسم منذ وقت طويل. كان يستخدمه فقط حين يكون غاضباً أو جاداً إلى درجة تقارب الغضب. "مسؤوليتك الأولى هي تجاه نفسك، دوري على الإشي اللي حاسة إنّه صح إلك إنت وحاسة إنّه رح يريحك إنت واعمليه، ولا تسمحي لحدا يخليكي تحسي بالذنب أو إنّك ما بتقدري تعمليه لأي سبب"

"ومسـؤوليتي تجـاه بلـدي؟" سـألت آمـال بنبـرة يشوبها غضب مبطن. "مش إنت اللي ربيتنا على هاي المثاليات؟ بلدكم وزي ما كبرتوا فيها لازم تكبر فيكم؟"

"مزبوط" هز والدها رأسه موافقاً. "بس بلدك مش رقعة أرض لازم تضلي مرابطة فيها شو ما صار. الوطن مفهوم أكبر من هيك. كلنا بنحب المكان اللي تربينا فيه واللي أهلنا فيه واللي بنعرفه وبيعرفنا، وكلنا عنا مسؤولية إنّا نشتغل عشان نخليه أحسن، بس لما توصلي مرحلة إنّك حاسة حالك محبطة ومش قادرة تقدمي إشي لبلدك ساعتها بصير لازم تدوري على مكان ممكن تكوني فيه إنسانة منتجة وتلاقي فيه حالك. الله خلق أرض واسعة وخلقلك عقل عشان تفكري فيه وتعرفي مصلحتك وين، مش عشان تحبسي حالك رهينة الجغرافيا والشعارات الفاضية. وطنك بتحمليه معك، أهلك وحياتك وذكرياتك وكل شي إلك هون بستنوكي، لا تربطي حالك فيهم"

لم تقل آمال كلمة واحدة، ظلّت تنتظر منه أن يقول المزيد، ولم ينتظر هو منها أن تقول شيئاً. "بتعرفي ليش أنا ما كملت جامعة؟" تابع كلامه، "بتعرفي إنّي كنت بدرس في جامعة دمشق. كنت راجع في العطلة على الأردن، هالحكي كان قبل حرب أكتوبر بشوي وكان الوضع مضطرب. لما جيت أرجع أمي ترجتني ما أسافر وقالتلي بديش هالجامعة إذا بدّو يصيرلك إشي خاصة إنّه أبوي كان إلو نشاط سياسي وقتها وممكن يكون اسمه على الحدود. قالتلي إنّه إذا بسافر هي ممكن تنجلط وتموت. خفت عليها، ما سافرت، قلت بأجّل فصل، بس راحت

الأيـام ومـا رجعـت علـى سـوريا مـن وقتهـا ولا كملـت دراسـتي، كلـه عشـان أمـي كانـت خايفـة علـي. مـن وقتهـا وعدت حـالي مـا أعمل هيك فـي اولادي. مـن حقـي أخـاف علـيهم، صـحيح. مـن حقـي أنصـحهم ويمكـن أمـنعهم وهـم صغار يعملوا أشياء ممكن مـا تكـون بمصـلحتهم، صـحيح، بـس بمجـرد مـا كبـروا وصـاروا مسؤولين عـن حـالهم مـن حقي أنصحهم وبس، مش من حقي أربطهم أو أخلـي خوفـي علـيهم يـربطهم. فـلا تفكـري إنّـي مـش خـايف عليكـي زي أمك، بس خوفنا مشكلتنا إحنا مش مشكلتك إنت"

كانت آمال تسمع مـا يقولـه والـدها وكـأنّ كـل كلمـة تفك عقدة في ذهنها وتزيح غشاوة متراكمة فوق عينيهـا لـم تـدرك أنّهـا كانـت هنـاك أصـلاً. وقفـت صـامتة تسـتمتع لـه بإنصـات، ومـا أن انتهـى حتـى وجـدت نفسـها تسـير نحـوه بخطـى تلقائيـة وتعانقـه. ربّـت علـى كتفهـا مـرتين، ثـم نظـر إليها وقال بحزم مفتعل: "روحي ضبي شنطتك"

عادت آمال إلى غرفتها لتتفاجـأ بـأنّ أمهـا لـم تـزل هنـاك، وبـأنّ حقيبـة السـفر لـم تعـد فارغـة. كانـت تقـف بـين الخزانـة والحقيبـة وقـد أخرجـت بعـض الملابـس ورتبتهـا فيها. توقفت لحظة حين رأت آمـال ثـم حاولـت جعـل الأمـر يبدو طبيعياً.

"قلـت مـش معقـول تضـلي حاطـة الشـنطة هيـك ومبحلقة فيها" قالت أمها وهـي تطـوي سـترة وتضـعها فـي الحقيبـة. "هينـي رتبتلـك شـوية أواعـي صـيفي، شـوفي شـو بدك غيرهم كمان، أما الكعاكيش اللـي فـي الدُرج مـا مـديت إيدي عليها، ما بعرف شو بدك تاخدي منها."

ضحكت آمال من كلمة "كعاكيش"، كانت الكلمة المثالية للتعبير عن سخط أمها على كل تلك الأوراق والصور التي لا تعني شيئاً لأحد سوى لآمال. اقتربت من الخزانة وراحت تساعد أمها في طي الملابس ووضعها في الحقيبة بشكل طبيعي.

"الكعاكيش ما رح آخدها معي" قالت بشكل عرضي وكأنّه ليس بالموضوع المهم. "رح أخليهم هون، لأنّه مكانهم هون، أنا ما معي وسع"

الفصل السادس عشر

في المطـــــار

الجميع يكره الوداع؛ تلك اللحظة التي نحتضن فيها أحباءنا لآخر مرة قبل أن نفارقهم لفترة لا ندري كم ستطول، ونحاول تجنبها أو تأخيرها قدر المستطاع بطقوس وداعية أخرى تحمل المشاعر نفسها بشكل مستتر لا يتضمن دموعاً ولا أحضاناً: نحمل لهم حقائبهم، نوصيهم بالاعتناء بأنفسهم، نعد لهم طعام الإفطار قبل الرحيل، نرافقهم إلى أقصى نقطة يمكننا بلوغها في المطار حتى تخبرنا لافتة "للمسافرين فقط" بأنّه لا مجال للفرار من تلك اللحظة، فنودعهم وكأنّنا أدركنا في تلك اللحظة بالذات أنّ حياتنا لن تعود كما كانت من دونهم.

حاولت آمال التعامل مع الأمر بشكل عادي. لا داعي لأي مشاهد درامية فهي ستسافر، لن تهاجر... مبدئياً على الأقل. لكنّ كل محاولاتها السيطرة على مشاعرها المتضاربة باءت بالفشل، فماذا تفعل المبررات المنطقية أمام ثلاثين عاماً في مكان واحد ومع الأشخاص أنفسهم؟

رافقوها إلى المطار، حمل لها ثائر حقيبتها حتى وصلوا إلى بوابة المغادرين، تناولت الحقيبة منه هناك لتكمل الطريق إلى الداخل وحدها، لكنّها وضعتها جانباً للحظة والتفتت إليهم وقد وقفوا أمامها، والدها بملامحه الجدية التي تخفي قلقه، والدتها التي تدافع الدموع والكلام،

عروبة بابتسامتها المساندة لأختها رغم تحفظها على قرارها، وثائر الذي راحت عيناه تدوران في المكان وكأنّه يريد تحاشي الموقف برمته. لِمَ نجعل الأمر صعباً هكذا؟ هي ستسافر لتعمل ليس لتحارب في جبهة ما، لِمَ يكون الموقف عاطفياً لهذه الدرجة؟ حتى عروبة التي احتضنتها تعرف أنّها حين تعود ستضحك من سخافة الموقف، فهي لم تحتضنها في حياتها قطّ، لماذا تتعاملان الآن كشقيقتين في مسلسل مكسيكي؟ ربما لأنّ الفراق كالموت، لا يميّز بين صغير وكبير ولا يأبه بالمسافات، الفراق هو الفراق، مهما تعددت أسبابه وأشكاله. أو لعل هذه اللحظات هي المتنفس الذي يبحث عنه الإنسان للبوح بمشاعر لم يكن ليبوح بها في المواقف العادية، تماماً كما يحدث عند استقبال مولود جديد أو توديع شخص في جنازة. الولادة تذكرنا بشوقنا الأزلي إلى الحياة، والموت يذكرنا بمصيرنا الحتمي، والفراق يذكرنا بألم اشتياقنا إلى من نحبهم وببعد المسافة التي تفصلنا عنهم، مادية كانت أم معنوية. الإنسان أناني بطبعه، في النهاية كل ما نفعله يتعلق بشكل أو بآخر بحاجة كامنة فينا، قد ندركها وقد لا ندركها.

ودعتهم بسرعة، حاولت الحفاظ على ابتسامة عريضة تخفي أي قلق أو خوف لديها ولا تظهر سوى السرور والحماس لاكتشاف مكان جديد. لم تخدعهم بذلك لكنّ الجميع اتفقوا ضمنياً على تصديقها. تناولت حقيبتها ودخلت عبر البوابة بخطوات سريعة ومتقاربة، التفتت مرة أخيرة للوراء، لوحت لهم بيدها وأشارت لهم بأن يغادروا، ستتدبر الأمر بنفسها الآن.

وضعت حقيبتها في جهاز تفتيش الحقائب ودخلت غرفة تفتيش السيدات. كانت أمامها سيدة تبدو في الأربعينيات من عمرها، ترتدي ملابس رسمية وتقوم بالإجراءات كما لو كانت تحفظها عن ظهر قلب. حين همّت بدخول غرفة التفتيش قالت وكأنّها تفكر بصوت عالٍ: "هاي إجا وقت التحرش الجنسي" ضحكت آمال، لم تجرب أن يتم تفتيشها في المطار من قبل. أكملت السيدة كلامها كأنّها فتحت حواراً مع آمال. "ما دام بنمرق من تحت البطيخ جهاز التفتيش ليش بفتشونا هيك؟" لم تقل آمال شيئاً، فهي لا تملك خبرة في الأمر بعد، لكنّها فهمت ما تقصده المرأة تماماً وسبب غضبها حين مررت موظفة المطار يديها على كامل جسدها بعد أن طلبت منها رفع ذراعيها للأعلى. هذا هو القانون، والجميع يجب أن يمر بهذا التفتيش، إلا أنّ ذلك لم يمنعها من أن تشعر بأنّها تعرضت للانتهاك بشكل ما.

تناولت حقيبتها الثقيلة وراحت تنظر إلى الشاشات المعلقة فوق مكاتب تسجيل الحقائب حتى وجدت الخطوط الجوية التي ستسافر عليها كما قالوا لها أن تفعل. جرّت حقيبتها وراءها ووقفت تنتظر دورها، ووقفت أمامها امرأتان تتحدثان بلهجة عراقية، لم تفهم الكثير مما قالتاه، لكنّها فهمت أنّ ابن إحداهما طلب تأشيرة دخول إلى دبي ولم يحصل عليها. تذكرت صديقتها العراقية آمنة التي كانت تعمل معها والتي جاءت إلى الأردن بعد الغزو الأمريكي للعراق عام 2003. كانت تسخر دائماً مما آل إليه وضع العراقيين وكيف أصبحوا يواجهون صعوبات في السفر إلى بلدان كثيرة لمجرد أنّهم عراقيون. ظلت آمنة

مقيمة في الأردن ولم تعبر عن رغبة في العودة إلى العراق. في البداية لم تكن آمال تفهم لماذا لا تتحدث آمنة عن العراق كثيراً، وكأنّه ليس بلدها الذي ولدت فيه وعاشت تحت سمائه كل أعوام طفولتها وأوائل شبابها... لكنّها عرفت السبب لاحقاً. كثيرون من أصدقاء آمنة قُتلوا في الحرب، والدها تعرض للاختطاف وباعوا نصف أملاكهم هناك لدفع فديته، أما ألمها الأكبر فكان شقيقها الذي فُقد في الحرب ولم يعرفوا عنه شيئاً. افترضت آمنة أنّه مات وسلّمت بذلك، أما والدتها فلم تستطع ذلك، لم تستطع التخلص من الأمل برجوع ابنها إليها، رغم أنّها كانت تقول دائماً إنّها تتمنى لو أنّه مات ووجدوا جثته وأعادوها إليها، فعندها كانت ستعرف ماذا تفعل، كانت ستحزن عليه وتبكيه، أو قد تنهار عند رؤيته وربما تموت بعده... كل ذلك أهون من الانتظار من دون نهاية في الأفق.

ناداها الموظف فانتبهت من شرودها، جرّت حقيبتها بأقصى سرعة قدرت عليها، حاولت رفعها لوضعها على الحزام المتحرك لكنّ الموظف هرع لمساعدتها في ذلك. طلب منها جواز السفر والتذكرة، سألها عن وجهتها فقالت بحماس لم تعهده في نفسها: "دبي". "أول مرة؟" سألها مبتسماً وملاحظاً حماسها الواضح؛ فأومأت برأسها. لم يسألها عن شيء آخر، إلا أنّها شعرت برغبة في قول المزيد. أرادت إخباره عن سبب سفرها، عن موقف عائلتها من ذلك، عن جدتها، عن أم يحيى... ما دخل أم يحيى في الموضوع؟ لماذا تقفز إلى ذهنها دائماً في مثل هذه المواقف؟ لا بد أنّها تعني لها

الكثير، أكثر مما تدرك. لعل هذا ما جعلها تغضب كثيراً حين سمعت مرشح الرئاسة الأمريكي ذاك يشير إلى الشعب الفلسطيني على أنّه مجرد شعب وهمي اخترعه العرب. بدا الأمر سخيفاً للجميع لدرجة السخرية حيث قال ثائر: "يعني أم يحيى طلعت مجسم ثلاثي الأبعاد؟ كنت عارف!"

سرحت بأفكارها من جديد، والغريب أنّ كل فكرة كانت تذهب بها بعيداً عن هذا المطار وعن فكرة السفر كلها وتعود بها إلى المكان الذي تهمّ بتركه، كأنّها تحاول الهروب من المكان والزمان أو كأنّها لا تستوعب ما يحدث فعلاً. نبّهها الموظف من شرودها ليعيد إليها التذكرة وجواز السفر. سألته أين تذهب فأشار إلى مكتب الجوازات. شكرته وهمّت بالذهاب ثم ارتبكت قليلاً حين ظنت أنّها نسيت حقيبتها، مشت خطوة للوراء وخطوتين للأمام، دارت حول نفسها باحثة عن الحقيبة ثم تذكرت أنّها سلمتها ليتم شحنها ولن تراها إلا في مطار دبي. ضحكت على نفسها وشكرت الموظف مرة أخرى. لم يعرف لماذا ضحكت ولا لماذا شكرته، لكنّه ضحك على أي حال وتمنى لها رحلة سعيدة.

عند مكتب الجوازات كان هناك صفان: صف للأردنيين وصف للأجانب من غير حملة الجواز الأردني. أمامها في الصف كان يقف شاب يبدو في العشرينيات من عمره، وبمحاذاته في الصف المقابل كان يقف شاب آخر فهمت من لهجته ومن كلامه أنّه من فلسطينيي الداخل. كانا مسافرين إلى ألمانيا لحضور مؤتمر ما ويتناقشان حول ما

سيفعلانه هناك. قال الأردني مازحاً إنّه لن يعود، بل سيحاول البحث عن عمل والحصول على إقامة دائمة هناك، واقترح على صديقه فعل الشيء نفسه. ضحك الآخر. "يا عمي إنت بطلعلك" قال بسخرية. "بس احنا الفلسطينية ما بنفع نترك البلاد ونروح نعيش برّا، البلاد عم بتضيع واحنا فيها بدك إيانا نطلع كمان؟ ولا شو اسمه احتلال إذا ما حرمك نعمة إنّك تعيش وين ما بدك وترجع لأرضك متى ما بيجي ع بالك؟"

شعرت آمال بشيء من الخجل لم تدرِ ما سببه، وتذكرت كلام أبيها عن معنى الوطن. كم يتغير المعنى حين يصبح الوطن مهدداً بالسرقة. هذه جريمة أخرى من جرائم الاحتلال، إنّه يجبرك على اختزال الوطن في قطعة أرض وبيت من حجر، إن غادرته قد لا تستطيع العودة إليه، وإن عدت إليه فقد لا يكون موجوداً. مرة أخرى تذكرت أم يحيى، لا يمكن إلا أن تتذكرها.

أنهت معاملة الجواز وصعدت الدَرَج الكهربائي حيث رأت السوق الحرة لأول مرة. بضائع من كل الأنواع وتذكارات ومصنوعات يدوية تباع بأسعار سياحية. أعجبتها دمية على شكل جمل مكتوب عليها "أنا أحب الأردن"، فكرت أنّها ستبدو جميلة في الشقة، حملتها لشرائها ثم شعرت بأنّها سائحة أجنبية لا تعرف من الأردن سوى الجِمال وبيوت الشعر والبتراء فأعادتها إلى مكانها.

بحثت عن رقم البوابة على التذكرة، اتجهت إليها وجلست في انتظار بدء تحميل الركاب على الطائرة.

ضحكت من نفسها حين تذكرت أنّها كانت خائفة أن تركب طائرة أخرى، فهذا شبه مستحيل مع كل هذه الإجراءات وكل الأشخاص الذين يتفقدون جواز السفر وتذكرة المسافرين. "هاد مطار مش موقف باصات العبدلي" قالت لنفسها. كانت معذورة في سذاجتها، لم تخجل منها، إلا أنّها أحست بالخجل نوعاً ما من جواز سفرها الذي يُختم الآن لأول مرة وقد قاربت الثلاثين من عمرها.

على الكرسي المقابل لها كان يجلس رجل أنيق المظهر عرفت من لهجته أنّه مصري. كان يتحدث على الهاتف مطمئناً زوجته أنّه في طريقه إلى الإمارات، وبدا من كلامه أنّه رجل أعمال أو ما شابه ذلك، إلا أنّه ذكّرها بمصري آخر أكثر بساطة، "محمود" الذي كان يعمل مراسلاً في شركتها القديمة. تذكرت كيف كان يتحدث بشغف عن بلدته الصغيرة في صعيد مصر وعن أمه التي لم يرها منذ عامين، إلا أنّه كان يعرف عمّان أكثر مما تعرفها هي، وكان كل من في المنطقة يعرفه. حين كانت تسأله عن أكثر شيء يشتاق إليه في مصر كان يجيب بلا تردد ولا تفكير أنّها عائلته. "الغربة غربة الأهل يا آمال" كان يقول لها بلهجته المصرية المميزة، ومسحة درامية خاصة. ورغم غربته كان يعتبر نفسه واحداً من أهل البلد، وكان يعتبر نفسه مسؤولاً عن راحة الموظفين وإيجاد بيئة عمل مريحة لهم، حتى إنّه كان يمازحهم كلما جلب لهم الشاي أو القهوة قائلاً: "حارمكوا من حاجة؟ حاسّين بغربة؟"

ضحكت حين تذكرت ذلك، ثم انتبهت أنّ رجل الأعمال ينظر إليها باستغراب وهي تضحك وحدها. ابتسمت بأدب وهزت رأسها كأنها تقول له إنها ليست مجنونة كما يظن، ثم أشاحت بنظرها بعيداً لتنهي ذلك النقاش الصامت الذي كان سينتهي على أي حال حين جاءت موظفة المطار وطلبت من الركاب الاتجاه إلى الطائرة.

أحست آمال بتثاقل في خطواتها. ظلت تنتظر حتى لم يعد هناك غيرها أمام البوابة. نظرت إليها الموظفة وسألتها إن كانت هناك مشكلة. هزت آمال رأسها بالنفي واتجهت نحو البوابة. مشت في ذلك النفق الطويل الذي يقود إلى الطائرة، خُيّل لها أنّه لن ينتهي أبداً، أو ربما تمنت ذلك. كان الخوف يتعاظم بداخلها وكان عليها وضع حد له. ضمت جوز السفر إليها وقررت وضع حاجز ذهني أمام أي شعور كان. ركزت نظرها على نهاية النفق حيث رأت باب الطائرة والمضيفة التي تستقبل الركاب. نظرت المضيفة إلى تذكرتها ودلتها على مقعدها، كان المقعد بجانب النافذة مما أشعرها ببعض الارتياح، قد يساعدها ذلك على التحكم برهاب الاحتجاز لديها.

استقرت في مقعدها، راحت تنظر من النافذة إلى الطائرات الأخرى التي تهم بالإقلاع. شعرت برهبة من فكرة وجود شيء ضخم كهذا معلق في الهواء، بل ويسير بسرعة خيالية. رحّب الطيار بالمسافرين عبر مكبر الصوت، وطلب منهم الانتباه إلى عرض فيديو من أجل

سلامتهم. أصيبت آمال بالذعر لمجرد رؤية أقنعة الأكسجين وسترات النجاة، لكنّها شاهدت المقطع باهتمام من باب التحسب لأي طارىء. قرأت دعاء السفر وآيات من القرآن وذكّرت نفسها بأنّ أي مكروه ليس مكتوباً لها ما كان ليصيبها في الأرض ولا في السماء فارتاحت بعض الشيء. سمعت صوت محرك الطائرة يعمل، شمت رائحة وقود، انتابها الذعر مجدداً ونادت على المضيفة لتخبرها. ابتسمت المضيفة وقالت لها إنّه أمر طبيعي عند تشغيل المحرك، خاصة أنّ مقعدها في آخر الطائرة. لاحظت توترها فجلبت لها كوباً من الماء وتأكدت من أنّها تضع الحزام للإقلاع.

أخيراً تحركت الطائرة، والتصق وجه آمال بزجاج النافذة. فجأة تبدد كل الخوف والقلق وحل مكانهما شعور غريب لا تتذكر أنّها شعرت به من قبل. راحت الطائرة ترتفع شيئاً فشيئاً وراحت الشوارع والسيارات تصغر شيئاً فشيئاً حتى بدت أشبه بمدينة ألعاب كالتي كانت تلعب بها هي وأخواها في صغرهم. تعلقت عيناها بالمساحات الصحراوية التي تتخللها بعض الأشجار هنا وهناك، إنّها ترى بلدها من الجو لأول مرة، وتبتعد عنه لأول مرة. كانت تتخيل أنّها ستبكي حين ترى ذلك المشهد، لكنّها لم تفعل، بل وجدت أنّ ذلك سيكون نفاقاً وأنّه ليس من حقها، فهي تسافر باختيارها، لتفعل شيئاً من اختيارها، لم يفرض عليها أحد شيئاً، لم تُنفَ ولم تُهجّر، هي من أرادت الابتعاد. لم تشعر بأي مشاعر عاصفة أو برغبة في البكاء وهي تشاهد نفسها تبتعد شيئاً فشيئاً عن المكان الذي قضت فيه ثلاثين عاماً من حياتها، بل شعرت بأنّ الحبل

الُسري الذي وُلدت به يُقطع الآن لأول مرة. كان شعوراً متزناً أكثر مما تخيّلت، لم يعد ذهنها مزدحماً بأفكار متشابكة كما كان منذ قررت السفر؛ تلاشى كل ذلك في لحظات وشعرت للمرة الأولى منذ أشهر بالصفاء والتركيز، كأنّها تركت كلّ مخاوفها على الأرض فراحت تتضاءل كلّما ارتفعت مبتعدة عنها، تاركة ذهنها خالياً إلا من فكرة وحيدة راحت تتكرر بإلحاح وبشكل لاشعوري: أنّها ستعود.

تمّت

فهرس المحتويات

العنوان رقم الصفحة

الفصل الأول : صورة شمسية.....

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

الفصل العاشر:

الفصل الحادي عشر:

الفصل الثاني عشر:

الفصل الثالث عشر:

الفصل الرابع عشر:

الفصل الخامس عشر:

قبلَ السَّفر